الأكراد وبلادهم

الإهداء...

أهدي كتابي هذا بكل وضاعة إلى مدينة تكريت العظيمة – العراق –
التي خلقت رجالاً عظاماً غيّروا مجرى التاريخ.

القيادة العامة

راولبندي

٢ أغسطس ١٩٥٨

المقدم شيخ عبدالوحيد

الأكراد وبلادهم

تاريخ الشعب الكردي

منذ أقدم العصور إلى العصر الحاضر

مع تقديم

للفيلد مارشال محمد أيوب خان

ترجمة

عبدالسميع سراج الدين



دار آراس للطباعة والنشر

اربيل – اقليم كردستان العراق

دار اراس للطباعة والنشر
شارع جولان – اربيل
اقليم كردستان العراق
البريد الاكترونى aras@araspress.com
الموقع على الانترنيت www.araspublishers.com
الهاتف: 35 49 224 66 (0) 00964
تأسست دار آراس في (٢٨) تشرين (٢) ١٩٩٨

المقدم شيخ عبدالوحيد
الأكراد وبلادهم
منشورات آراس رقم: ١٢٠٣
الطبعة الثاني ٢٠١١
كمية الطبع:٦٠٠ نسخة
مطبعة آراس – اربيل
رقم الإيداع في المديرية العامة للمكتبات العامة ١١٩٠ – ٢٠١١
الاخراج الداخلي: كارزان عبدالحميد
الغلاف: آراس أكرم
التصحيح: أوميد أحمد البناء

المنطقه المنقطه تبين اماكن سكن الأكراد.

تقديم

هذا كتاب آخر يؤلفه الميجر وحيد بعد كتابه الأول عن العراق (شط العرب) وهو يكتب هذه المرة عن الأكراد الذين يكوّنون جزءاً هاماً من الشعب العراقي. لقد حاول الكاتب تصوير الكيان القبلي للأكراد. لغتهم وعاداتهم الاجتماعية والطبيعة الجغرافية للبلاد التي يقطنونها. وذكر بالتفصيل مساهمات الأكراد في تاريخ الشرق الأوسط والإسلام. ولعل أهمها ما قام به السلطان صلاح الدين الأيوبي (الذي ينتسب إلى أصل كردي) من أعمال مجيدة وانتصارات باهرة والمقاومة الشديدة التي قام بها الأكراد في وجه هجمات المغول خلال القرن الثالث عشر. لقد تتبّع الكاتب تاريخ الأكراد المضطرب حتى عصرنا الحاضر. وإنني لعلى ثقة في أن هذا الكتاب سيقرأه بعناية كل من يهتم بدراسة شؤون الشرق الأوسط خاصة وأن الأكراد قوم يشبهون من نواح كثيرة قبائلنا التي تعيش في منطقة الحدود الشمالية الغربية. والآراء المذكورة في هذا الكتاب هي بالطبع خاصة بالمؤلف وليست لهيئة ينتمى إليها.

وأخيراً أقدم تهنئتي للمؤلف لما بذله من جهود في تأليف كتاب مهم مثل هذا وسط اعبائه الرسمية.

إمضاء

الجنرال محمد أيوب خان

القائد العام

للجيش الباكستاني

تمهيد

كنت أشرح لأحد أصدقائي العراقيين في بغداد حركة "الباثانستان" (في باكستان) فإذا بالانفعال يظهر على وجهه وينفجر قائلاً إنها بالضبط مثل مشكلة كردستان التي خلقها أعداؤنا الذين يعملون دائماً على التفرقة بين المسلمين فهم يدرسوننا بإمعان حتى يعرفوا نقط ضعفنا فيستغلونها لتحقيق مآربهم، وقال بعد أن تلا آية من القرآن الكريم، وحتى الله تعالى تنبأ بضعفنا وأنذرنا من أخطار التفكك سواستمر يقول وهو يفرك بأطراف أصابعه حبات مسبحته" إننا مثل اليهود قد حلّت بنا اللعنة ولن نخلص أنفسنا إلا بالقضاء على النعرات الطائفية واللغوية وبالتمسك بالأخوة الإسلامية السامية لقد كانت اندفاعات ذلك العراقي لها ما يبررها – فالتشابه ليس بين الأكراد والباثانيين كأفراد فحسب، بل يوجد تشابه كبير أيضاً بين باثانستان وكردستان كحركتين، وأسباب هذا التشابه واضحة بيّنة إذ أنّ مدبري حركات التفرقة هذه يستوحون نفس المصدر ويعملون لنفس الهدف – وهو هدم ما كافح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في سبيل تحقيقه من وحدة إسلامية شاملة – ويزداد هذا التشابه عمقا بقدر ما هنالك من جهل في العراق عن الباثانيين ومقاصد حركة باثانستان وبقدر ما هنالك جهل في باكستان عن الأكراد وخطر حركة كردستان. وأنا أحاول في هذا الكتاب الصغير أن أقدم تقريراً واقعيا عن أصل الأكراد وتاريخهم إلى جانب وصف البلاد التي يقطنونها، وهذه في الواقع محاولة لتقديم هذا الشعب العظيم الباسل إلى قراء اللغة العربية، وقد حاولت أن أذكر فقط الوقائع التاريخية لأصل الأكراد وتاريخهم الماضي كما حاولت أيضاً أن أعالج بصورة واقعية "الكردستان" كحركة. فان اهتمامي بالأكراد وبلادهم لا يتعدى أن يكون اهتماماً دراسياً. لذلك يمكن أن يعتبر هذا الكتاب كتاباً تاريخياً وليس بحثاً سياسياً. وإنّني أؤكد أن وضع هذا الكتاب لا يتعلق إطلاقاً بوظيفتي فإنّ السلاح الذي أنتمي إليه ليس له أدنى علاقة بالموضوع المذكور ولا أتلقى منه أي مساعدة أو توجيه. أؤكد هذا لأنني مسؤول عما أكتب وأن الآراء التي أعبر عنها هي آرائي الخاصة لا يمكن اعتبارها رسمية.

لا يذكر الشعب الكردي في الأنباء العالمية وأوضاعه الراهنة إلاّ نادرا وهذا يبرز جهل العالم كله تقريباً لهذا الشعب العظيم. ومع ذلك فإنّ هذا الشعب قادر على اتخاذ قرارات

(سياسة وعسكرية) من شأنها أن تكون عاملاً رئيسياً في توجيه دفة التاريخ. والكتب التي ألفت عن الأكراد وبلادهم قليلة ومعظمها ليس مبنيا على الحقائق ولا محتوياً على أحدث المعلومات. وحتى دوائر المعارف لا تخصص لهذا الموضوع إلاّ صفحة أو صفحتين. يمتد تاريخ الأكراد مثل تاريخ الباثانيين الذين يعيشون في منطقة الحدود الشمالية الغربية من باكستان إلى أكثر من مائة قرن. إنّه في الواقع تاريخ تركيا وسلاطين الأتراك وتاريخ أرمينيا والأرمن وتاريخ عرب العراق وسوريا وتاريخ إيران. وتعتبر بلاد الأكراد منطقة محرمة إذ أنّها تقع على حدود أربع دول كبيرة حيث تلتقي عقيدتان عظيمتان .

ومن المتفق عليه أن التيارات الجارفة الخطيرة توجد أينما اجتمع نهران في مجرى واحد. ولكن إذا اجتمع ثلاثة أو أربعة أنهر فان التيار لا يكون جارفاً خطيراً فحسب بل سيكون سلسلة من الدوامات المخيفة التي تغرق أضخم السفن وأعتاها. ومع ذلك أمكن المحافظة على القانون والنظام في المناطق التي يقطنها الأكراد في كل من العراق وإيران وتركيا بفضل الحنكة الإدارية لحكومات هذه الدول[١].

يلقى السائح في المناطق الكردية كرماً وترحيباً كبيراً على عكس الدعايات المغرضة التي ينفثها أعداء العراق وأعداء إيران. وكفى أن يقوم السائح بزيارة قصيرة لمهاباد وتبريز في إيران أو الموصل وكركوك في العراق ليشاهد بنفسه حسن الإدارة واستتباب الأمن والنظام مما يدحض تلك الادعاءات المغرضة.

ولقد استفدت كثيراً من جولاتي في مناطق الأكراد بصحبة زوجتي التي يرجع إليها الفضل في ترحيب الأهالي بنا في القرى والدساكة التي زرناها إذ كانت تقوم بمهمة الترجمة وتساعدني على جمع أحدث المعلومات عن سكان تلك المناطق وخاصة من الأغوات الأكراد وذلك رغم التعب والإرهاق من عناء السفر والطويل، إذ قطعنا حوالى ثلاثة آلاف ميل.

وكانت إيران لسوء الحظ عند زيارتي لكردستان تمر بمرحلة حرجة من تاريخها. فقد استخدم أعداؤها كل وسيلة لإضعافها. وكانت الاضطرابات في كردستان في غليان والحالة في أزربيجان غير هادئة. ولكن بالرغم من كل ذلك منحتني وزارة الخارجية الإيرانية تصريحاً بالتنقل بحرية في منطقي تبريز ومهاباد وأنا أتقدم بشكري

(١) الدول الأربع الكبيرة هي العراق و إيران و تركيا و الاتحاد السوفيتيى

للحكومة الإيرانية لهذه المعاملة الطيبة.

إن الجندي العراقي والجندي الإيراني مخلصان كل الإخلاص لوطنيهما، قادران على تحمل المشاق والصعوبات إلى أبعد حد. ويلم صغار الضباط العراقيين والإيرانيين إلماماً واسعاً بالشؤون الدولية ويؤدون واجباتهم بمهارة وهم مخلصون لزيهم العسكري فخورون به. ويكنّ كل من الضباط والجنود الصداقة والمودة لباكستان.

ولديّ قائمة طويلة بأسماء أصدقائي الذين أدين لهم بالشكر والامتنان لما قدموه إلي من مساعدة وتشجيع وبدون هذه المساعدة والتشجيع ما خرج هذا الكتاب أبداً. لذلك أقدم لهم الشكر الجزيل من أعماق قلبي.

٨ يوليو ١٩٥٤
رقم ٢٢ تيجكاون (باكستان الشرقية)
عبدالوحيد

تمهيد للطبعة الثانية (المنقحة)

في هذه الطبعة بقي موضوع الكتاب كما هو بدون تغيير ولم نصحح إلاّ بعض الأخطاء المطبعية، وإنني أتقدم بشكري إلى صديقي العقيد محمد شفيع الذي صحح هجاء بعض الكلمات وغيرها من الأخطاء المطبعية التي ظهرت في الطبعة الأولى.

لقد استطاع معظم السادة الذين راجعوا كتابي فهم هدفه الصحيح وهو إثبات سمو الوحدة الإسلامية على الحدود الجغرافية والسياسية والجنسية واللغوية المصطنعة، عن طريق الاستشهاد بتاريخ الشعب الكردي. وفي حالة عدم فهم هذا الهدف (لسبب أو لآخر) فإنّ الآثار الضارة ستظهر في شكل حركتي "كردستان" و"بختونستان". ويكذب تاريخ االشعب الكردي أولئك الذين ينفثون دعاياتهم بأن الدعوة لنشر عقيدة القومية الإسلامية تخلق مشاكل للأقلية المسيحية التي تعيش في دول الشرق الأوسط. وقد أثبت تاريخ الشعب الكردي الذي يقولون عنه إنّه من الشعوب الإسلامية المتأخرة وجود مودة وأخوة عظيمتين بينه وبين الأرمن المسيحيين ذلك لأنّ كلاً من الإسلام والمسيحية جاءا من منبت واحد وهما حقا ملة واحدة، ملة إبراهيم عليه السلام. ولقد أثبت التاريخ في الماضي أن السلام في الشرق الأوسط يعتمد على التعايش الودي بين المسيحية والإسلام (وليدرك العالم هذه الحقيقة) وفي الواقع قد ينقذ هذا التعايش الودي الإنسانية من الدمار وإذا ما قدر قارئي العزيز هذه الحقيقة التاريخية، سوف يكون هذا التقدير أكبر مكافأة لي.

١ يناير ١٩٥٨
٨هـ طريق بشاور – راولبندى
عبدالوحيد

الفصل الأول

مقدمة

تهجي كلمة راجبوت في السجلات القديمة لشركة الهند الشرقية "راش بهوت" وكلمة باتان "بيتان"، وتمضى تلك السجلات في شرح الباتاني بالتفصيل ولكن الأثر النهائي الذي يتركه الشرح يعطينا فكرة عن الباتاني بأنه شخص طائش خارج عن القانون لا ينتمى لأي حضارة ويعتدي على عفاف النساء(*).

وتتعلق هذه السجلات بأوائل القرن الثامن عشر، حيث كان الخيال والمبالغة يعتبران من الفنون المستخدمة في الكتابات الجدية. ولكن من المآسي أنه حتى في هذا العصر –منتصف القرن العشرين– لاتزال المعلومات عن الأكراد حتى بين الأشخاص المطلعين قليلة مشوهة لدرجة أننا نشعر كأننا لانزال نعيش في القرن التاسع عشر –عصر المبالغات– ففي حديث جدي أجراه ضابط أوروبي مطلع أخذ يشير إلى الأكراد بأنهم سأولئك... الدراويش الراقصون... ذوو السراويل المنتفخة... الذين يعيشون في جبال السودان"، ويلبس الأكراد بدون شك سراويل منتفخة ويسكنون الجبال ولكنهم لا يوجدون بأي حال من الأحوال في أي منطقة قريبة من السودان مع أنّ المنطقة التي يقطنها الأكراد هي أهم كثيراً بالنسبة للسلام العالمي من السودان، فالمسألة السودانية تبدو وقد تم حلها تقريباً. ولكن المسألة الكردية – إذا كانت هناك فعلا مسألة – قد ازدادت حدة يوما بعد آخر بحجة تسويتها بما فيه ضرر الأكراد بل وضرر المسلمين جميعاً.

وإن جهدي الذي سأبذله على الصفحات التالية لن يكون من أجل تقديم المسألة التي

(*) يجب أن أذكر هنا أن الملوك الباتان قد حكموا شبه القارة الهندية الباكستانية زها. مائة عام و كانوا عاملا أساسيافى تنمية الحضارة الهندية الباكستانية وإنتاج أحسن ما في ثقافتنا، وكان البختونى (الباتاني) دائما ولا يزال مثال الاستقامة والاخلاص والوحدة وقد أنجب الباتان فيالماضي القريب رجالا عظاما أمثال صاحب زاده عبدالقيوم والدكتور خان صاحب وفي الوقت الذي كتب فيه مؤرخو شركة الهند الشرقية ما كتبوه عن الباتات كان هذا الشعب يحكم الشمال الغربى من الهند.

قد تكون في الواقع غير موجودة، بل من أجل تعريف القارئ بعض الشيء بهذا الشعب العظيم المرح الذي يدعى الشعب الكردي، وإنني أحاول في هذا الفصل تقديم أبسط المبادئ لتعريف الكردي وبلاده. وهذا الفصل وضع من أجل الأشخاص الذين ليس لديهم الوقت الكافي لقراءة الكتاب كله بينما وضعت الفصول التالية بدرجة أولى لدارس التاريخ وكل من يريد دراسة مفصلة للأكراد وبلادهم، لقد تجنبت عمدا إطلاق اسم كردستان على البلاد التي يقطنها الأكراد.

ولفظ "كردستان" يعني لغوياً الأرض التي يسكنها الأكراد. ولكن للأسف أصبح الآن رمزاً للميول الانفصالية لدى بعض الأكراد بأن يكون لهم دولة منفصلة خاصة بهم باقتطاع أجزاء من كل من تركيا وإيران والعراق وسوريا. وهذه ظاهرة أخرى من مظاهر القومية الأوروبية التي تفرض فرضاً على الأوضاع السياسية في بلاد المسلمين أحيانا على أيدي بعض المثقفين المسلمين أنفسهم وغالبا على أيدي الدول الأجنبية التي ترى من مصلحتها أن يتفرق المسلمون.

إن الأوضاع السياسية تشبه الملابس الشخصية التي لا تلائم إلاّ الأشخاص الذين فصلت من أجلهم. فإن عقيدة "القومية" و"الوطنية" التي تطورت عن الثورة الصناعية وفي خلال عهد التوسع الاستعماري في أوروبا تتعارض مع عقيدة "القومية" و"الوطنية" كما جاء بها الإسلام. وهذا هو السبب الرئيسي الذي جعل حركة كردستان هذه (مثل حركة بختونستان التي تبشر بها كابول) لتبقى في أيدي فئة معينة من السياسيين فقط. ويستنكر الحركتين لا السواد الأعظم من الأكراد والسواد الأعظم من الباتان فحسب، بل وكل شخص مسلم خالص النية.

ولنعد الآن لموضوعنا (الأكراد) مرة أخرى. ولنصف الكردي في كلمات مختصرة. هو مسلم من رجال القبائل الذين يعيشون في المنطقة الجبلية حيث تلتقي حدود إيران بحدود تركيا والعراق وحيث تلتقي حدود تركيا مع حدود سوريا والعراق. فالشعب الكردي إذن مجزأ فيما بين الدول المستقلة الأربع إيران والعراق وتركيا وسوريا.

الديانة

الكردي مسلم سني باستثناء عدد قليل جدا. فعلى الحدود التركية العراقية وخاصة في الجبال المنيعة شمالي العراق حول أميديا وأربيل ورواندوز توجد عدة قبائل وقرى كردية تعتنق مذاهب شيعية غريبة.

كزلباش

وتوجد قبيلة كردية تعيش حول الحدود العراقية – الإيرانية تسمى "كزلباش" والكزباشيون ليسوا إيرانيين بل أكراد يتكلمون اللغة الكرمانجية مع أن بعض أفراد هذه القبيلة الموسرين الذين يقيمون في طهران وغيرها من مدن إيران يتكلمون الفارسية. ومع احترامي لأصدقائي الكزلباشيين. فإن لفظ كزلباش يعني شخصاً ضخماً قويا طائشا خارجاً عن القانون وذلك في اللغتين الأرمينية والتركية بل وفي اللغة الكرمانجية (الكردية) نفسها.

أصلهم(*)

اصل قبيلة كزلباش من منحدرات جبال زاجروس وليس من إيران. ومذهب الكزلباشيين حتى في موطنهم الأصلي هو المذهب الشيعي ولكنه يختلف عن مذهب الشيعة الإيراني. وأعتقد أن السبب الذي يجعل البعض يعتبرهم إيرانيين هو أنهم من الشيعة ويتكلمون اللغة الفارسية.

العلي اولاهيون

ويوجد نوع آخر من الأكراد المسلمين يسمون العلي اولاهيين، وهم شبه وثنيين إذ كانوا في الأصل وثنيين ثم اعتنقوا الإسلام وقد اعتنق هؤلاء العلي اولاهيون الإسلام إسماً فقط بسبب جهلهم الشديد. وهم في الواقع مازالوا محتفظين بشعائر ديانتهم القديمة فاستبدلوا أسماء آلهة ديانتهم الوثنية القديمة بأسماء أولياء المسلمين، وما يزالون على ما كانوا عليه منذ آلاف السنين. فهم يشبهون إلى حد بعيد بعض معتنقي الإسلام من سكان الهند الوسطى المنتمين إلى أحط طبقات المجتمع والذين يحتفلون

(*) من اصل كردي له شعر في لون الزنجيل – ومع ذلك فان شوكت حيد آبا شاه اسماعيل صفوى ملك ايران (١٤٥٦) – ٨٨) كون فرقة خاصة من القوات الصفوية كانت تلبس زيا ميزا – قبعة قرمزية ذات اثنى عشر شريطا – وقد اطلق الناس على كل جندى يلبس تلك القبعة صفة الكزلباش (ذي الرأس الأحمر) و هؤلاء بالطبع ليسوا الكزلباش الحقيقيين اذ يمكن لأى شخص أن يلبس قبعة حمراء ويطلق عليه اسم ذي الرأس الاحمر – وينحدر أصل بعض الأسر الكزلباشية الايرانية المعاصرة الى جنود "الكزلباش" الفرقة الخاصة التي كونها الشاه شوكت حيدر والد الشاه اسماعيل صفوى – .

بيوم عآشورا على نفس طريقة "دوسهرا" الهندوكية التقلدية.

وليس هؤلاء العلي اولاهيون من اليزيديين بل هم طبقة قائمة بذاتها ويسمون أنفسهم أكراداً ويتكلمون بلهجة كرمانجية ومذهبهم هو مذهب الشيعة. ومعظمهم أقرب ما يكونون من الإسماعيلية، يجلون الآغا خان إجلالا كبيرا.

ومع أنهم مسلمون شيعيون علنا بالرغم من تعبدهم في المساجد إلاّ أنهم يقيمون سراً شعائر خاصة ويزاولون خفية عقائدهم التي ورثوها عن أجدادهم منذ عهد بعيد والتي من شروطها الأساسية أن تجسم الألوهية على وجه الأرض. وفي الوقت الذي يطبق العلي اولاهيون ديانتهم القديمة في قالب إسلامي، يقدسون أيضاً جميع الأنبياء المذكورين في القرآن: إبراهيم وموسى ويوسف والمسيح ومحمد. ثم يتدرجون من علي إلى سلمان الفارسي وغيرهما من أئمة وأولياء الشيعة. كل هؤلاء يعتبرهم العلي اولاهيون تجسيما لله على وجه الأرض.

ويتخذ العلي اولاهيون لغرض التقرب ولياً محليا يقدسون ضريحه ويقدمون له النذر والقرابين. كما تتخذ كل جماعة من العلي اولاهيين شخصاً حياً يسمونه عادة "آغا" أو سبيك" ويقدسونه لاعتقادهم الخرافي انه يمثل الله. ويقدس الأكراد الغورانيون ضريح بابا يادغار الواقع داخل غار بجبل يشرف على مدينة حلوان القديمة بينما تنسب القدسية وراثة في أسرة السيد التي تقطن بالقرب من ذلك المكان.

وتوجد عقائد مشابهة في مناطق أخرى من الجبال يمكن مقارنتها بمذاهب الدروز أو الأنصار في سوريا والإسماعيليين في إيران.

ويعتبر الأكراد العلي اولاهيون والكزلباشيون من المحاربين الأشداء. فهم أقوياء البنية مطيعون للأوامر العسكرية وفي إمكانهم القيام بأي عمل عسكري إذا وضعوا تحت أيدي قائد محنك. وهم فخورون بتقاليدهم وأسلافهم مخلصون وأمناء لأغواتهم وبكواتهم وقادرون على تحمل الصعاب. أما من جهة تعليمهم فهم متخلفون جدا. ولم تنتشر أجهزة الراديو إلاّ نادراً في قرى الكزلباشيين والعلى اولاهيين. غير أن القلة التي جندها البريطانيون في الحربين العالميتين الأولى والثانية وخاصة فرقة المجندين في السلاح الجوي الملكي (وهي ميليشيا محلية كانت تحرس قاعدة تابعة للسلاح الجوى البريطاني في الحبانية والشعيبة بالقرب من البصرة) تلم بالشؤون الدولية إلماما كبيرا.

ويمكن عدها مادة ممتازة لرجل الدعاية الماهر. ولن يمكن لأي أحد أن يكسبهم إلى جانبه بسبب إخلاصهم لأغواتهم وملاتهم.

الأكراد السنيون

يعتنق السواد الأعظم من الأكراد المقيمين في سوريا والعراق وإيران المذهب السني، أما الأكراد الذين يعيشون في شرقي تركيا فكلهم سنيون. والكردي السني شخص عادي بسيط جداً وهو مثل جميع رجال القبائل متمسك جدا بالدين ويتصف بالأمانة والصدق والتواضع ويخشى الله ويعامل الناس معاملة جدية.

وتتأثر أحوال معيشة الكردي ومعظم عاداته بطبيعة عمله ■الرعي– إذ أعطته هذه الحرفة عقلاً لا يهدأ وعيناً يقظة ساهرة، والكردي جندي بالفطرة ومحارب مغوار مستعد للتضحية في سبيل الله والدين، يحترم الأكراد الشخص المؤمن المتدين، وللملا نفوذ كبير حتى بين القبائل السنية، ويحترم الكردي كلمته وهو متمسك جدا بتقاليد الإسلام، كإيواء كل من يلجأ إليه حتى ولو كان من أعدائه، والكرم المفرط وعلاقات حسن الجوار، وهو من الناحية الدينية متسامح جدا، فقد عاش المسيحيون خاصة المسيحيون الأرمن بين ظهرانيهم عده قرون في انسجام ووئام، ويفخر الأكراد بإنجابهم عددا كبيرا من الأولياء والأبطال المحاربين أمثال بابا يادغار وصلاح الأيوبي (الذي انتصر على الصليبيين).

السكان

من الصعب معرفة التعداد الصحيح للأكراد. إلا أن أقرب التقديرات إلى التعداد الصحيح للأكراد هو خمسة ملايين وسبعمائة وخمسة وعشرين ألف نسمة موزعين بين أربعة أقطار مستقلة هي تركيا وإيران والعراق وسوريا.

وتضم تركيا أكبر مجموعة من الأكراد إلا أنّها ليست في تماسك واندماج المجموعات الأخرى. ويقدر عدد الأكراد في شرقي وجنوب شرقي تركيا بحوالي مليونين ونصف مليون نسمة. وتزداد كثافة الأكراد في تركيا بين سكان المناطق المتاخمة للحدود التركية – الإيرانية والحدود التركية – العراقية والحدود التركية – السورية. وتوجد بعض الجيوب الكردية المتفرقة حول الحدود التركية – الروسية بالقرب من منطقة القفقاز. ويوجد بعض القرى الكردية وعدد من الأكراد في أرمينيا بل وجورجيا الروسية أيضا.

ويبلغ عدد الأكراد في إيران حوالى مليون وسبعمائة ألف كردي يعيش معظمهم في غربي وشمال غربي إقليم أزربيجان. وتعتبر مدينتا مهاباد ورزايا الواقعتان على شاطئ بحيرة أورميا كرديتين ١٠٠ ويكوّن الأكراد أيضاً الأغلبية بين سكان الحدود الإيرانية المتاخمة لكل من العراق وتركيا. وعلى الشاطئ الشرقي لبحر الخزر وعلى بعد ٢٠٠ ميل شمال غربي مشهد في إقليم خراسان في إيران توجد مستعمرتان كرديتان كبيرتان حول مدينتي بوجينورد وكوتشان. وتبعد هاتان المدينتان الكرديتان عن باقي مواطن الأكراد نحو ألف ميل ويبلغ عدد سكانها حوالي ٢٠٠ ألف نسمة.

ويوجد في العراق حوالى مليون كردي يكونون الأكثرية في سكان مناطق الحدود الشمالية الغربية والشمالية الشرقية المتاخمة لسوريا وتركيا وإيران. ويعتبر شمال العراق الموطن الأصلي لقدماء الأكراد ومهد امبراطورياتهم. وتظهر عظمة الأكراد في المناطق المحيطة بالموصل وكركوك ورواندز وأربيل. وتقع قرية تكريت حيث ولد صلاح الدين الأيوبي على بعد ٨٠ ميلا شمالي بغداد.

ويفخر أكراد العراق بأنهم أعرق دماً من باقي الأكراد وأعلاهم طبقة. ويعتبر أكراد العراق بالنسبة لجميع الأكراد تماماً مثل قبيلة يوسف زاي الباتانية بالنسبة لباقي القبائل البختونية.

ويوجد في شمال سوريا وشمالها الشرقي عدد قليل من الأكراد على أنهم مع ذلك مندمجون ومتجانسون. ومن أشهر القبائل الكردية التي تقطن الحدود السورية التركية قبيلتا الأكراد المليين والمهرانيين. ويبلغ مجموع الأكراد في سوريا حوالي ٣٧٥ ألف نسمة. ولا تلقى الحكومة السورية أي مشاكل من هذه القبائل الكردية إلا نادراً.

ويمكن تتبع أثر بعض القبائل الكردية التي هاجرت من موطنها الأصلي أي من شمالي العراق واتجهت شرقا حتى استوطنت مناطق في أفغانستان وباكستان قبيلتا الباويندا والغيلزاي الأفغانية إلى أصل كردي كما أن البلوشيين الذين يقطنون بلوشستان هم أكراد تركوا موطن أجدادهم من عدة قرون.

ويحتل الأكراد مكانة مرموقة في المناصب الحكومية في الدول الأربع جميعا. ولا يشكو الأكراد خاصة في العراق وسوريا وإيران أي تمييز عنصري.

حدث أن اجتمع مرة في أحد مقاهي بغداد ستة رجال ثلاثة منهم إنجليز والثلاثة الآخرون عراقيون، ومن الإنجليز الثلاثة واحد من ويلز وآخر من اسكوتلندا والثالث من

لندن، أما الثلاثة العراقيون فإثنان منهم كانا عربيين والثالث كردي، وكانوا جميعا يشربون في انسجام زجاجة ويسكي، ودار بينهم حديث ودي تطور حتى صار مناقشة حامية وانقسمت تلك الجماعة إلى فريقين ولسبب لا يعلمه إلا الله انضم الكردي مع الاسكتلندي. وازدادت المناقشة حدة حتى اشتكبوا بالأيدى واستطاع الكردي والاسكتلندي وحدهما أن يتغلبا على الأربعة الباقين. ولا عجب إذ يوجد دائماً نوع من الانسجام بين أفراد الطوائف المشابهة في كل دولة في العالم. ولا تختلف حالة الكردي في العراق وإيران وتركيا عن حالة الاسكتلندي في إنجلترا.

اللغة

يسمي الأكراد لغتهم اللغة الكرمانجية. وتكتب بالحروف العربية وهي خليط من اللغتين التركية والفارسية، ومؤسسة على اللغتين الكلدانية والطورانية. ومع ان الكرمانجية هي لغة التخاطب عامة بين الأكراد إلا أن بعض القبائل الكردية تتكلم عدة لهجات للكرمانجية أهمها الزازاية والغورانية. ويتكلم الأكراد الذين يعيشون في تركيا وفي إقليم أزربيجان في شمال غربي إيران اللهجة الزازاية. ويوجد فرق كبير بين الكرمانجية الأصلية واللهجة الزازاية، إذ تشتمل الأخيرة على كثير من الألفاظ الأرمينية والتركية كما أن اللغة الكبادوسية القديمة هي من مقوماتها الأساسية، فاللهجة الزازية تختلف عن الكرمانجية الأصلية من حيث الألفاظ والترنم ولا يستطيع الكردي العادي الذي يتكلم الكرمانجية أن يتخاطب بسهولة مع الكردي الذي يتكلم اللهجة الزازية الخالصة. أما اللهجة الغورانية فيتكلمها الأكراد الذين يعيشون في سهول جبال.

زاغروس(*)

ويوجد الأكراد المتكلمون باللهجة الغورانية في مدينتي همدان وكرمانشاه غربي إيران. وتمتد المناطق التي يتكلم أهلها اللهجة الغورانية حتى قصر شيرين وبيساطون شرقا. واللهجة الغورانية هي أقرب إلى الفارسية من الكرمانجية وفي الواقع يستطيع أي شخص يتكلم الفارسية من أن يفهم اللهجة الغورانية التي يتكلمها الأكراد في

(*) وبهذه المناسبة يعني لفظ زاغروس "فهما وراء الجبال" إذ أن لفظ غور أو غورى تعني جبل و تسمي هذه المنطقة في اللغة الفارسية.

كرمانشاه وقصر شيرين وبيساطون.

وفي رأي صاحب كتاب الشرفنامه وهو كتاب تاريخي ألّف بالفارسية منذ حوالي ٦٠٠ سنة أن أكراد قبيلة غوران هم أنقى قبائل الأكراد إذ أنهم ينتمون مباشرة إلى بختنصر.

تعتبر بلاد الأكراد على جانب كبير من الأهمية من الناحية الاستراتيجية... ومما لاشك فيه أن معظم الأبحاث التي أجريت عن الأكراد وجغرافية بلادهم ومواردهم المعدنية، بل حتى عن عاداتهم وتقاليدهم إنما قام بها ضباط الجيش البريطاني الذين خدموا في العراق خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها. وباباغورغور (النفط) هو الذي جذب انتباه الآخرين في الآونة الأخيرة فقط.

الأدب

اللغة الكردية غنية نوعا ما، وفي وسعها أن تصبح أداة طيبة للتعبير. غير أن اللغة الكردية إذا ما عجزت عن إيجاد كلمة مناسبة استعارتها فوراً من الفارسية أو العربية أو التركية. وقد زحفت بعض الألفاظ الإنجليزية العلمية إلى اللغة الكردية في الآونة الأخيرة. وتفخر اللغة الكردية (بلهجتيها الكرمانجية والغورانية) بأدبها الغزير. وتدرس كثير من الكتب الكردية المؤلفة منذ ٥٠٠ سنة في الصوفية والقصص والأغاني الشعبية، ويشغف الأكراد بأدبهم شغفاً كبيراً. وقد ترجمت بعض الكتب من اللغتين الفارسية والتركية إلى الكردية خلال المائة سنة الماضية كما ترجم مؤخرا عدد من الكتب الإنجليزية والألمانية. ويعتبر الألمان أول من درسوا وحققوا بإمعان في تاريخ الأكراد وآدابهم. وقد طبع الإنجيل باللغة الكردية سنة ١٨٥٧ في إستنبول. ونشر القسيس صمويل رحبا قواعد ومعجم اللهجة الحكارية عام ١٨٧٢. وقد نشر كل من لرش ويروغش وتشود وزك وبيريسيف وإلان، ثم أخيرا بعض الأدباء والعلماء الإنجليز كتباً علمية تبحث في مختلف نواحي الحياة والأدب الكردي.

وبعد الألمان يأتي الروس في الاهتمام بالأكراد. ففي عام ١٨٧٩ نشرت الأكاديمية الامبراطورية في بطرسبرغ قاموساً فرنسياً – كردياً ويعتبر من أثمن ما كتب حتى الآن عن الأكراد إذ اشتملت مقدمته على معلومات قيمة عن القبائل الكردية.

وفي فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى حل البريطانيون محل الألمان والروس في

ميدان الأبحاث عن الأكراد. فقد تصادف وجود أشهر حقول النفط بالموصل وكركوك في أراضي كردية. ويقع جبل باباغورغور الذي ينبع من جوفه الذهب السائل (النفط) في ضواحي كركوك وسط بلاد الأكراد الأصلية.

العادات الاجتماعية والحياة المنزلية

توجه ضد الأكراد لسوء الحظ دعايات سيئة بدون وجه حق، ومن العوامل التي أدت إلى نشر الدعايات السيئة ضد الأكراد كونهم في حالة حرب مستديمة مع كل سلطة حاكمة، غالبا ما ينبذ الأكراد ويعرض عنهم سواء كانوا في تركيا أو العراق أو سوريا، الأمر الذي نتج عنه إصابتهم بمركّب نقص ليس في صالح الوطن الذي ينتمون إليه. ويمتاز الكردي بالشجاعة والكرم فهو كريم مع كل شخص، ويستجيب الآغا الكردي لأي طارق يطرق بابه في أي ساعة من الليل ومهما كان الطارق فقيرا ومهما كان غريباً ومهما كان عدواً للمضيف فانه يلقى كرم الأكراد وسعة صدرهم.

ويعتقد الأكراد أن البيت الذي لا تدخله الضيوف محروم من بركة الله، ففي اعتقاد الكردي أن زيارة الغريب والضيف تجلب البركة والرزق. ودائماً ما تقدم الهدايا للضيف عند مغادرته. فإذا غادر صباحا حمل معه هدايا من النقل والجبن بل أهديت له أيضاً الأبسطة والسترات المصنوعة من الفراء. ولا ينتظر المضيف الكردي أي جزاء أو شكر من ضيفه.

ولا تزال القبائل الكردية في مرحلة من التفكك، وكثير من القبائل لم تكن وحدة مستقلة عن وحدة الأسرة أو أكثر منها. ويكون رئيس القبيلة أكبر أفرادها سناً أو جدهم الأعلى، ولم يتوطد بعد نظام رب الأسرة وما القبائل الصغيرة إلا عبارة عن أسرة كبيرة من الأعمام وأولاد العم.

وينتشر تعدد الزوجات بين الأكراد. حتى الشخص ذو الدخل المتوسط يحاول أن يتزوج أكثر من واحدة. وللأسف فإن مسألة عدد الزوجات تتعلق بمكانة الزوج الاجتماعية فكلما زاد عدد زوجاته ارتفعت منزلته بين الأكراد. وفي اعتقادي أن مزاولة تعدد الزوجات هذه تحتمها بعض الضروريات. فالمرأة الكردية بغض النظر عن مركزها الاجتماعي، سواء كانت زوجة آغا أو زوجة رجل فقير تقوم بنفسها بأعمالها المنزلية.

الحياة المنزلية

يبدأ اليوم العادي لربة البيت الكردية في الساعة الخامسة صباحاً. وفور نهوضها من النوم تتوجه إلى مالها (المواشي)، ثم تحلب بقرتها المفضلة بيديها، وبعد أن تصفي اللبن بخرقة نظيفة تضع قدر اللبن الكبير فوق النار، وبعد أن تغلي ربة البيت اللبن وتضعه في ركن تأخذ الماشية وتقودها خارج القرية لتسلمها إلى "خادم الجماعة" الذي يقوم برعي ماشية القرية كلها، وتبلغ حوالى مائتي أو ثلاثمائة رأس، وبعد أن تعود ربة البيت إلى المنزل تأخذ روبة اللبن التي أعدتها في المساء في سالمشكة" وهي (مخضة فخارية أو جلدية) وتمخضها مع المرأة الأخرى وتستخرج الزبدة، وفي هذه الأثناء يكون الزوج قد نهض من نومه وتوضأ وصلى الفجر، وتضع الزوجة طعام الافطار على (دسترخان) وهي قطعة كبيرة من القماش تمد على الأرض المفروشة ببساط ولباد، ويتكون طعام الافطار عادة من الجبن الطازج والزبد واللبن ورغيف ساخن مخبوز في التنور، ونجد سواء على دسترخان الآغا الثري أو الشخص الفقير قطعا كبيرة من القشدة السميكة وشهدا طازج وقرصا ضخما من عجة البيض مصنوعة من عشر أو عشرين بيضة.

ويتناول أفراد الأسرة جميعا طعام الافطار معاً. ولكن في الأسرة الكبيرة يمد الدسترخان للرجال أولا، وبعد أن يأكلوا تجلس النساء لتناول افطارهن، هذا إذا لم تكن الأسرة صغيرة مكونة من أشخاص معدودين وبعد الافطار يتوجه الرجال إلى مزارعهم أو إلى بساتينهم وتذهب النساء إلى حظائر الماشية ويجمعن الجلة ويمزجنها بالتبن والأوراق الجافة وينشرنها على أسطح بيوتهن ويتركنها حتى تجف ثم تستخدم كوقود.

وتكون الشمس قد أشرقت والساعة قد أشرفت على السابعة صباحاً. فتبدأ ربة البيت في كنس بيتها وترتيب أثاثه ثم تغسل الثياب وغير ذلك. ويحين الوقت كي توقد تنورها لتعد طعام الغداء ويتكون طعام الغداء عادة من قطع كبيرة من اللحم مطبوخة في التنور مع كمية كبيرة من الطماطم والبطاطس. ولا تستعمل التوابل أو الشطة. ويستخدم البصل فقط في طبخ اللحم وغيره من المطبوخات.

ومن الأطباق الأخرى المفضلة في طعام الغداء "العابور" وهو عبارة عن إناء كبير مليء باللبن الرائب ويوضع في التنور مع كمية من "الدعان" والدعان يعد بدق القمح

في هاون لازالة القشرة حتى تبقى حبات صغيرة بيضاء من القمح تشبه الأرز في شكلها وقبل وضع إناء العابور في التنور تكسر بيضتان وتضربان جيداً وتخلطان باللبن الرائب والدعان. ويوضع الاناء بعد ذلك على النار ويحرك بملعقة كبيرة باستمرار حتى يغلي العابور. وبعد أن يعقد العابور (مثل الحساء الثخين) يرفع عن النار ويضاف إليه قليل من الملح وأوراق النعناع لتحسين المذاق. وبعد ذلك تقل درجة حرارة التنور ويحين الوقت لخبز أرغفة الخبز – إلى أن يبرد التنور نوعا ما فيؤخذ ستة أو سبعة أسياخ ويغرز فيها قطع من اللحم والطماطم والباذنجان والفلفل الرومي ثم توضع في التنور وتترك الأسياخ على النار الهادئة لتطهى تدريجيا بينما تجلس ربة البيت تشم رائحة الشواء المسيلة للعاب وهي ترقع بعض الملابس أو ترفع أو تغزل الصوف. وقد تكون هذه الفترة القصيرة كافية لربة البيت كي ترعى بعض شؤون أطفالها.

وفي أثناء ما تتم عملية تنظيف البيت وغسل الثياب وترقيعها والعناية بالأطفال يكون اللحم داخل التنور قد شوي وتحول إلى كباب لذيذ. وتكون رائحة الدهن المذاب اللذيذ إيذاناً للسيدة كي تسرع إلى التنور. وتضع ربة البيت كل ما طبخته من طعام على جانب من التنور الدافيء ثم تنتظر قدوم بعلها لتناول طعام الغداء.

ومرة أخرى يأكل الرجال أولاً ثم النساء. وإذا كان الرجال يعملون في الحقل تأخذ النساء طعام أزواجهن إلى الحقول التي قد تبعد حوالى ميلين أو ثلاثة أميال. وعندما يأتي المساء تقوم ربة البيت لتعتني بحظيرة البهائم فتفرش أرضها بأوراق النبات الجافة والتبن وتعد علف الماشية المكون من التبن الممزوج بالشعير وتضعه في المعالف ويحل الظلام وتبدأ الماشية في الرجوع من مراعيها بأنفسها. وتسقى أولا ثم تحلب وتربط في مرابطها.

وتعود ربة البيت إلى المنزل وتعد طعام العشاء الذي يطبخ في التنو. وأفضل طبق في العشاء يسمى "آش" ويعد بطبخ اللبن الرائب مع قليل من الدعان يضاف اليهما البصل الأخضر والسبانخ مع قليل من النعناع والملح كما يضاف إليه قليل من اللحم المقلي. وقبل أن يقدم "الآش" على الدسترخان يحمر قليل من البصل في الزبدة ويخلط بالآش قبل تناوله. وبالمناسبة يقدم هذا الطبق في بعض الفنادق الكبيرة بأوروبا والشرق الأوسط تحت أسماء مختلفة ولكنه يسمى غالبا "الحسا" الإيراني أو سالقفقازي" وإنه

حقيقة لطبق لذيذ خاصة في فصل الشتاء.

ومن الأطباق المشهورة حتى على دسترخان الكردي الفقير اللحم المشوي والكباب والواش (هو قطع رفيعة طويلة من الخبز محمصة في تنور ضخم).

ومن الأطباق الأخرى المشهورة التي تؤكل في الشتاء الهريسة. وتعد بفرم الدعن مع كمية مماثلة من اللحم ويفضل لحم الدجاج. ثم تقدح كمية مماثلة من الزبدة وتسكب فوق معجون الهريسة ويؤكل هذا الطبق بالملعقة. ويعتبر طبقا مغذيا لذيذا جدا ويشبه إلى حد كبير طبق "الحليم" وهو من الأطباق المشهورة في أفغانستان وبشاور وكوييتا وكشمير.

ويقدم طعام العشاء مبكرا في حوالي الثامنة ليلا. فيجلس الرجال في غرفة منفصلة وتجتمع نساء الحي في غرفة أخرى. وتسمى الغرفة التي يجلس فيها الرجال بالديوان. وتوجد كميات كبيرة من الفواكه الجافة والنقل من لوز وجوز وزبيب أسود. ولا يقدم الشاي الأسود ولا الأخضر في البيوت الكردية إلا قليلا. ومن مظاهر الديوان الكردي الخاصة التي تميزه عن دواوين العرب والأرمن والإيرانيين أنّ الخمر أو غيرها من المشروبات الروحية لا تقدم إلا نادراً جداً، حتى هذا النادر لايكون إلا في الخفاء ولا يشرب الأكراد الخمر إطلاقا. فالكردي متمسك بالدين الإسلامي وله إرادة قوية. ويمكنه مقاومة كثير من المغريات إذا أراد. ورغم اختلاط الأكراد في جميع أنحاد بلادهم بالأرمن والإيرانيين والعرب والأتراك ورغم وجود هذه المشروبات الروحية "الوطنية" مثل الفودكا والنبيذ والعرق إلا أن الكردي لا يقرب أبدً أياً من هذه المشروبات الروحية.

ذكرت من قبل أن تعدد الزوجات بين الأكراد مرده دائماً إلى الظروف. تصور كل الأعمال المنزلية تقوم بها امرأة واحدة. تصور كميات وأنواع الطعام التي تحضر يوميا ليستهلكها الزوج.

إنّ الزواج من اثنتين ضروري جدا للأكراد – على الأقل ما دامت أحوال معيشتهم باقية كما هي.

الفصل الثاني

الملامح الجغرافية للأكراد، ويتدرج تحتها الأقسام الأربعة التالية:

(١) شرق وجنوب شرق تركيا

(٢) غرب وجنوب غرب إيران

(٣) شمال وشمال شرق وشمال غرب العراق

(٤) شمال شرق سوريا

١- شرق وجنوب شرق تركيا

تتكون هذه المنطقة من سلسلة جبال تتصل وتعلو في الشمال ولكنها تتباعد وتنخفض تدريجيا في شكل هضبة منكسرة إلى أن تصبح في النهاية سهلاً متموجا يمتد إلى شمال العراق وشمال شرق سوريا.

ويسكن هذه المنطقة الجبلية الأكراد والأرمن مختلطين في أنحائها المتفرقة ولكن أكثرهم أكراد. فقد كان الأرمن خلال الخمسين سنة الماضية يهاجرون من بلادهم (حايستان) إلى دولتي إيران والعراق المجاورتين.

وكانت نسبة الأكراد إلى الأرمن في هذه المنطقة في نهاية القرن الماضي ٤٠، ولكن الأكراد فاقوا الأرمن عدداً فأصبحوا يكونون ٦٠ من مجموع سكان المنطقة. إنّ انعدام التماسك والانسجام السياسي والديني في هذه المنطقة ينعكس حتى في الميدان الجغرافي والجيولوجي، ويبدو أن شكل الأرض في هذه المنطقة قد تكون نتيجة العوالم الباطنية المختلفة التي صاحبت حدوث تصدعات ظاهرة جدا في القشرة الأرضية. ومما يؤيد هذه النظرية تغير مجاري الأنهار ووجود العراقيل في مجراها. ومما يزيد من التفكك الطبيعي في هذه المنطقة وجود الأنهار الثلاثة –أركسيس والفرات ودجلة– إلى جانب وجود عدد من أحواض الأنهار المتحولة عن مجراها، فبعضها أصبح ذا تصريف داخلي وبعضها الآخر يفيض عيونا. وكذلك تتدفق الحمم البركانية التي ردمت أودية بأكملها فكونت مساحات واسعة من الهضاب الجرداء. ومن هذه البراكين الثائرة بركان نمرود الذي عرقل مجرى أحد الأنهار فتكونت بذلك بحيرة "فان" الجميلة وتمتاز سلاسل الجبال في هذه المنطقة بظاهرة معقدة. ففي الشمال تمتد السلسلة الجبلية المحاذية

لشاطئ البحر الأسود من الشرق إلى الغرب أولا، ثم تمتد بعد ذلك من الجنوب الغربي إلى االشمال الشرقي إلى أن تتحول مرة أخرى إلى الاتجاه الأصلي كلما اقتربت من جبال القوقاز.

وبالاتجاه جنوباً نحو دياربكر تتكون جبال طورس من سلسلة من المرتفعات التي تنحرف بعد ذلك في شكل قوس عظيم نحو الجنوب الشرقي ويمتد هذا القوس حتى شمال وشمال شرقي كركوك. ويقع باباغورغور جبل النفط المشهور في الحضن الجنوبي لهذه السلسلة التي تستمر في اتجاه الجنوب حتى تتصل نهائيا بسلسلة جبال زاغروس في شرق إيران. وفي داخل تجويف هذا القوس توجد هضبة متسعة تنتشر فيها مدن دياربكر وماردين وأورفا الشهيرة ثم تنحدر هذه الهضبة تدريجيا تجاه شمال سوريا.

ويظهر أن المنطقة الواقعة جنوبا المتاخمه لإقليم أزربيجان الإيراني قد تعرضت لثورة بركانية حديثة. لذلك توجد على الصخور الصلبة طبقة رقيقة من التربة آخذة في التفتت وتحل محلها طبقة أخرى رفيعة من التربة. ولهذا السبب تعتبر أودية هذه المنطقة خصبة جداً غنية بجميع أنواع الفاكهة والحبوب.

الأنهار

شقت الأنهار مجاريها في المواد البركانية اللينة وغالباً ما يصل عمقها إلى بضع آلاف قدم من الهضبة المحيطة بها. وضفافها العليا ضيقة لدرجة يصعب الإقامة فيها ولكن ضفافها السفلى واسعة مليئة بالطمى، وإذا زرعت هذه السهول صارت منتجة للغاية. ولا يمكن السكن في هذه المرتفعات البركانية بسبب ارتفاعها إلى ٧٠٠٠ قدم أو أكثر ولعدم وجود الغابات والنباتات بها ومن أروع المناظر الطبيعية الأخاذة انتشار الفوهات البركانية هنا وهناك وقذفها بالحمم من جوف الأرض. ومن هذه البراكين بركان جبل أرارات الذي أقيم فوق قمته قوس النبي نوح عليه السلام. وتقل وعورة الأرض جنوباً حول دياربكر وماردين وأورفا، مع أن الأنهار تشق مجاريها على عمق بعيد من سطح الهضبة مما يجعل مساحة الأراضي القابلة للزراعة محدودة، ويحصل بعض المزارعين الأكراد على مياه الري من الأماكن التي يمكن فيها رفع المياه بسهولة لري الحقول ولكن نسبة كبيرة من الأكراد تعيش على المراعي.

المناخ

يتفاوت المناخ في بلاد الأكراد الواقعة داخل حدود تركيا تفاوتاً كبيراً. فهو حار جاف صيفاً خاصة كلما اتجهنا إلى الجنوب الشرقي حيث يزيد الحد الأقصى عن ١٠٠ درجة فهرنهايت وتصل درجة الحرارة في الأودية العميقة إلى ١٢٠ درجة فهرنهايتية، أما في الشمال الشرقي فتقل درجة الحرارة صيفاً فيكون معدلها ٩٠ درجة فهرنهايت خلال النهار ولو أن الاختلاف الظاهر بين حرارة النهار وبرودة الليل يجعل المعدل اليومي لدرجة الحرارة يتراوح بين ٦٥ درجة و٧٠ درجة فهرنهايت. أما الشتاء فبارد حتى في أقصى الجنوب حيث تصل درجة الحرارة في دياربكر خلال شهر يناير ٣١ درجة فهرنهايت ويشتد البرد كلما اتجهنا شمالاً، ففي مدينة كارس الواقعة في أقصى الشمال الشرقي من المنطقة تقل درجة الحرارة إلى تسع درجات فهرنهايتية خلال شهر يناير وتصل في الليل إلى ٥٠ درجة تحت الصفر. وتتراكم الثلوج لمدة أربعة أشهر في المناطق الشمالية الشرقية المتاخمة لإقليم أزربيجان بينما تظل في الجنوب حول دياربكر وماردين لمدة ١٥ يوما فقط. وبسبب ارتفاع السطح في هذه المنطقة تهطل فيها الأمطار أغزر من أواسط تركيا. وتتراوح نسبة سقوط الأمطار بين ١٧ و٢٤ بوصة. وتكثر الأمطار خلال شهري فبراير ومارس ولكن بالقرب من بحيرة فان تتشابه الأحوال الجوية مع منطقة البحر الأسود لذا تغزر الأمطار خلال شهر مايو في أرضروم وشهر يوليو في كارس. إن مناخ البلاد الكردية مثل الأكراد أنفسهم خشن قاسي.

فالصيف حار جاف ومترب مثل جبال وهضاب بلوشتان. والشتاء تماماً مثل شتاء بلوشتان قارس البرودة ويتعرض الربيع والخريف كلاهما لموجات حارة أو باردة مفاجئة. وتسبب الموجات الحارة رياح فوهن ورياح الخماسين التي تهب من الصحراء العربية جنوباً وتسبب الموجات الباردة هبوب رياح باردة من داخل آسيا التي غالبا ما تسبب تساقط الثلوج حتى خلال شهر مايو.

٢- غرب وجنوب غربي إيران

إن شكل الأرض في المنطقة الإيرانية لبلاد الأكراد يجعلنا نعتقد أن مارداً ضخماً قد ضغط بيده على سطح الأرض فأبرز جبالاً هنا وكوّن منخفضات هناك. وتشمخ الجبال التي تركت في الشمال الغربي دون أن يمسها ذلك المارد الضخم على إرتفاع عال فتبدو

وكأنها هضبة متسعة تنحدر تجاه الجنوب الشرقي. وتفصل بين كل مرتفع وآخر وديان عديدة منخفضة فتختلف التضاريس اختلافا بيّنا. ولا تزيد بعض وديان الأنهار عن كونها شعاب وممرات جبلة ولكن الأودية الأخرى أوسع بسبب العوامل الباطنية مثل وادي نهر أراكسيز الذي يتراوح عرضه مابين عشرة وأربعة عشر ميلاً ووادي سفيد رود المتعرج عبر حوض منخفض عرضه ١٥ ميلا حول مدينة ميانه وهب (مياندواب) من مدن كردستان الإيرانية الشهيرة. والمظهر الثالث الذي تمتاز به تضاريس هذا الجزء الكردي من سلسلة جبال زاغروس وجود فوهات بركانية عديدة تكونت بتجمع الرواسب على طول الخطوط المتشققة. وغالباً ما تتكون في أعلى الهضبة فتبرز قمم سفالان ١٤٠٠٠ قدم وسهد ١٢٠٠٠ قدم وخروزانا ١١٥٠٠ قدم).

وعلى العموم تتفاوت مرتفعات الهضبة الصخرية والمتموجة أو المغطاة بطبقات من حمم البراكين الحديثة تفاوتاً متبايناً في المناخ. لذلك نادراً ما يعيش السكان هناك. ومثل هضبة بلوشتان غربي كويتا على الحدود الغربية من باكستان لا يزور هذه المناطق الا الرعاة الرحل الذين يرعون ماشيتهم على الهضبة البركانية الجرداء صيفاً ويهبطون إلى المدن أو الوديان العميقة المحاذية لضفاف الأنهار شتاء. وتزداد كثافة السكان في المناطق النهرية العريضة حيث يقل التفاوت الكبير في المناخ وحيث تظهر الخصوبة بالنسبة للمناطق الجافة الجرداء التي تمتد مئات الأميال في جميع الأنحاء. ومن المدن التي اتسعت وازدهرت لأسباب جغرافية اقتصادية مدينة مهايار وهي من أهم المراكز الحربية في شرق إيران.

المناخ

المناخ في هذه المنطقة يتفاوت تفاوتاً كبيراً فالصيف شديد القيظ والشتاء شديد البرودة. أبرد كثيرا من المعدل في المناطق الواقعة على نفس خط العرض.

الأمطار

تهطل الأمطار بغزارة في جبال مهاباد وحولها وجنوبي تبريز وفي رازائية.

وتكثر الأمطار عامة خلال شهر مارس ولكن المطر يسقط طول الشتاء تقريبا كما يتساقط البرد خلال شهري مارس وإبريل أحياناً. أما باقي شهور السنة فتكاد تكون جافة.

الرياح

ومن المظاهر الأخرى هبوب الرياح الشديدة التي تزيد آثار التفاوت الكبير في درجة الحرارة سواء في الشتاء أو الصيف. وتسبب هذه الرياح الشديدة صيفاً تيار الهواء الموسمي الجاف القادم من شمال غربي شبه القارة الهندية الباكستانية وبلوشتان ويمتد غرباً إلى إيران مسبباً إرتفاعات في درجة الحرارة تصل إلى ١٢٠ درجة فهرنهايت بينما تتأثر هذه المنطقة بشتاء شديد البرودة بفعل الأعاصير السيبيرية لقلة الحواجز الطبيعية التي تمنع مرور الهواء الشديد البرودة والجفاف المتجه إلى الجنوب الغربي. ومن جهة أخرى تحجز الجبال القائمة في الغرب والجنوب التأثيرات البحرية فلا تستفيد من الرياح المعتدلة الرطبة التي تهب من البحر الأبيض المتوسط وبحر قزوين والخليج الفارسي إلاّ المناطق الخارجية من كردستان الإيرانية.

ويسبب إرتفاع السطح أيضاً برودة الشتاء الغير عادية ومع أن ارتفاع السطح لا يلطف كثيراً من شدة حرارة الصيف نهاراً إلاّ أنه يسبب انخفاضاً كبيراً في درجة الحرارة ليلاً. وفي مهاباد ورازائيه يتراوح معدل درجة الحرارة السنوي بين ٣٥ درجة و٤٥ درجة فهرنهايت. لذلك يشتد الصقيع خلال أواخر الشتاء وأوائل الربيع. أما الغيوم فقليلة جداً.

إنعدام السحب بوجه عام هو من العوامل الهامة التي تسبب تفاوتاً كبيراً في درجة الحرارة اليومية والموسمية. ففي الصيف تتوهج الشمس على سطح الأرض العاري من السحب فتلهبه بحرارتها وفي الليل وفي أيام الشتاء تتسرب الحرارة التي امتصتها الأرض إلى الجو دون أن تعرقل طريقها أي سحب.

٣- شمال وشمال شرقي العراق

تسمى هذه المنطقة مهد كردستان القديمة حيث تبدو الهضبة العظمى في آسيا الوسطى قد اندمجت تدريجيا في سهول العراق الخصبة. وكلها جبلية ذات قمم عالية وغابات كثيفة ماعدا الجهة الشمالية الغربية حول الموصل وفي المنطقة التي يحدها نهر الزاب الكبير والأجزاء العليا من نهر دجلة ورافده نهر الخابور، فهي عبارة عن سهل خصيب. أما باقي أجزاء المنطقة خاصة في جهة الشمال الشرقي، فهي عبارة عن

أراضي صخرية جرداء ذات سلاسل جبلية متوازية بينها وديان عميقة. وليست هذه الجبال متصلة إذ تتخللها منخفضات كثيرة. وخلال هذه المناطق المرتفعة أدت التشققات العديدة التي سببتها الأنهار والسهول الجافة إلى تكوين وديان ذات جوانب شديدة الانحدار بعضها عبارة عن شقوق ومضايق حديثة التكوين لدرجة انعدام الرواسب الغرينية بها.

وتشق الأنهار في بعض المناطق طريقها مباشرة إلى سهول دجلة وتجرى خلال جبال كثيفة طريق سلسة من الشقوق والأفاجيج العميقة. وغالباً ما تشق هذه الشقوق والأفاجيج طريقها عبر أعالي الجبال مما يجعلنا نظن أنه لا يمكن للنهر وحده أن يشق طريقه بنفسه في مثل هذا العمق الكبير. يعتقد بعض العلماء أن هذه الشقوق والأفاجيج التي يسميها الأكراد "تانغ" هي في الأصل تصدعات متقاطعة في سطح الأرض تكونت بزوايا قائمة بالنسبة للمحور الرئيسي للهضبة، وأنهار ازدادت عمقا بفعل المياه الجارية وفي بعض الأحيان بفعل الرياح. وتوجد "التانغات" الجافة التي لا توجد بها أي علامة تدل على أنها قيعان أنهار، ولكنها تفيض خلال موسم الأمطار بالمياه المتدفقة. وتدل التضاريس في شمال شرقي كردستان على وجود تآكل كبير أحدثته المياه الجارفة المستمرة فتكونت بذلك قيعان أنهر محفورة على عمق كبير حيث تجرى الأنهار في مستوى أقل جدا من مستوى سطح السهول المحيطة وتحدها مرتفعات تبلغ أحيانا ٢٠٠ أو ٣٠٠ قدم. وما افجيج رواندوز إلاّ إحدى أمثلة الوصف الجغرافي المذكور أعلاه.

إذا مررنا في طريق هاميلتون الشهير من أربيل إلى رواندوز ثم عبرنا الحدود العراقية إلى إيران نشاهد فلنات طبيعية عجيبة حيث تفعل التكوينات الجغرافية الغريبة فعلها في المنظر الطبيعي فتحوله إلى منظر من مناظر العالم المجهول، وتشبه هذه المنطقة قطعة من القمر أو المريخ أو أي بلد من البلاد الغامضة التي تشاهدها على شاشة السينما لا على سطح هذا العالم الواقعي.

وقد تكون كل هذه الفلنات الطبيعية نتيجة نتوء جيولوجي أحدثه غوص مفاجئ في قاع الخليج العربي بسبب تجمع كتل ضخمة من الرواسب أو بسبب ارتفاع في سلسلة جبال الأناضول. وقد تكون أيضاً نتيجة مرحلة مناخية مؤقتة زادت فيها الرطوبة زيادة كبيرة خلال العصر الجيولوجي الثالث أو العصر الرابع ففاضت الأنهار فيضانا

كبيراً وجرفت السطح وشقته شقاً عميقاً. وتفسير هذا موجود بالطبع في التوراة والقرآن في قصة طوفان نوح. ومن الآثار الاقتصادية لهذا النوع من التضاريس أن الانحراف العميق لأنهار الجزء القديم من بلاد الأكراد قد جعل من الري مشكلة عويصة جداً وقد خلق قلة الري هذه الصفة الرئيسية للأكراد ألا وهي الحياة البدوية القبيلية.

المناخ

المناخ في هذه المنطقة بارد على العموم حيث تنخفض درجة الحرارة شتاءً عنها في المناطق الواقعة على نفس خط العرض ويفسر هذا وجود الجليد باستمرار في قمم الجبال. وتحدث موجة شديدة من البرودة عندما تمتد ردود فعل العواصف السيبيرية إلى ما وراء الجنوب الغربي لاسيما الوسطى فتجتاح الرياح القطبية القارية الباردة قمم الجبال المغطاة بالثلوج والخالية من الأشجار في هذا الجزء من البلاد الكردية.

الأمطار

لا يسقط المطر إلاّ خلال فصل الشتاء ويتساقط البرد في الخريف والربيع. وحجم حبات البرد أكبر كثيراً من حبات البرد التي تتساقط في مناطق أخرى واقعة على نفس خط العرض. وتهطل أمطار الشتاء بهبوب هواء بحري رطب من البحر الأبيض المتوسط على هيئة منخفضات هوائية ضحلة قد قلت رطوبتها. إذ أن الهواء الرطب يكون قد مر من قبل فوق جبال الأناضول أو جبال سوريا مخلفا وراءه معظم رطوبته، حتى يصل إلى هذه المنطقة وليس به رطوبة كافية لتمتزج بالهواء الموجود من قبل، الذي يحمل بعض رطوبة الرياح الموسمية.

٤- شمال شرقي سوريا

الجغرافيا

يقع هذا الجزء من البلاد الكردية جغرافيا في الجزيرة التي تقع بدورها بين أعالي نهري الفرات ودجلة فهو جزء لا يتجزأ منها. وهذا القسم من البلاد الكردية الذي يقع داخل حدود سوريا الحديثة هو القسم الشرقي من الجزيرة التي يحدها غرباً أعالي نهر الفرات وشمالاً سلاسل الجبال التركية الجنوبية. ويتكون هذا الجزء من البلاد الكردية غالباً من سهول متموجة لهضبة منخفضة تقع على ارتفاع يتراوح بين ٥٠٠ و١٠٠٠

قدم فوق سطح البحر تتخلله وديان أنهار صغيرة ليس لها مصب. وأكبر هذه الوديان خندق طويل ضيق محفور على عمق كبير في الهضبة ويعرف باسم وادي ثرثر داخل الحدود العراقية. وتقطع الوادي نهيرات قادمة من جهة الشمال ولكنها تنعطف في الطرف الجنوبي داخل مستنقع مالح. وقد يكون هذا الوادي مجرى قديما لنهر صار جافاً أو قد يكون بفعل العوامل الباطنية ولكنه على كل يعتبر درباً واضح المعالم متجها من الشمال إلى الجنوب منذ أقدم الأزمنة إلى الآن إلى جانب كونه مرعى لأغنام الأكراد المليين. وإلى الشمال الغربي من وادي ثرثر يقع جبل سنجار وهو امتداد للمرتفعات السورية. وبسبب ارتفاعه البالغ ٣٠٠٠ قدم تسقط الأمطار بغزارة في الأجزاء العليا من الجبل خلال فصل الشتاء فيتسنى بذلك زراعة الأودية المنخفضة بصورة مستقرة ويزاول الأكراد الكزلباشيون والمللي والمهرانيون في هذه المنطقة مهنتى الفلاحة والرعي.

ومن المظاهر الأخرى في الجزيرة وادي الخابور، الموطن القديم للميتانيين حيث تطور الري إلى درجة عالية وحيث أقامت نسبة كثيفة من السكان. ويعتبر جبل العزيز الواقع في الجهة الغربية من نهر الخابور مظهراً آخر من مظاهر الطبيعة – وهو جبل منخفض لا يزيد ارتفاعه عن ٢٥٠٠ قدم – وفي منحدرات جبل العزيز توجد وديان عميقة تجف أكثر من تسعة أشهر في السنة. وتملأ مياه الأمطار هذه الوديان في الشتاء وتصب في النهاية داخل الصحراء القاحلة. ويرفد الفرات نهر صغير بالقرب من الرقة –وهي مدينة هامة في هذه المنطقة الكردية. وهنا أيضاً لا يمكن زراعة الأرض بصورة مستقرة إلا حول نهر البليخ أما في ما وراء ذلك فلا يستطيع الأكراد المهرانيون رعي أغنامهم.

المناخ

يمتاز المناخ بالجفاف والحرارة الشديدة صيفاً والبرودة والرطوبة شتاءاً بينما يعتبر الربيع والخريف فترتي انتقال قصيرتين بين الشتاء والصيف. وبتكون الضغط المنخفض الموسمي صيفاً فوق الخليج العربي – وشمال غربي باكستان يتجه الهواء نحو الغرب مسبباً رياحاً شمالية غربية تهب طوال الصيف وتعرف باسم ريح الشمال ويهب الهواء الجاف الخالي من السحب على الأراضي الواطئة فيزيد درجة الحرارة في الظل فتصل أحياناً إلى ١٢٠ درجة فهرنهايت، أما الليل فدائم البرودة، وقد تقلل عملية

التبخر الشديد درجة الحرارة نهاراً بالقرب من الأنهار والمستنقعات بعدة درجات.

المحاصيل الهامة

وبالرغم من عدم وجود تشابه وتجانس في كل ميدان تقريباً من البلاد الكردية إلا أنه يوجد تشابه ملحوظ في المحاصيل الزراعية في كل من الأجزاء التركية والعراقية والإيرانية والسورية من البلاد الكردية – وتزرع جميع أنواع الفاكهة في المناطق الجبلية من بلاد الأكراد بينما يزرع الشعير والقمح والأرز والذرة والتبغ في السهول والوديان الواسعة.

الشعير

تستخدم القبائل الكردية المشتغلة بالزراعة الشعير غذاءً لها وعلفا لماشيتها بسبب زيادة قوة تحمله لجفاف الجو وملوحة التربة عن القمح والأرز وبسبب نموه في مدة أقصر. ويزرع الشعير بكميات مساوية في كل من سهول اراكسيس ومهاباد ورازائية في إيران وكذلك في مناطق الموصل وأربيل وراوندوز وكركوك شمال العراق.

القمح

القمح مثل الشعير من المحصولات الشتوية ولكن وجوده مقصور على المناطق الرطبة. ويزرع أجود أنواع القمح في جميع أنحاء البلاد الكردية. وللخبز المصنوع من القمح الكردي رائحة زكية شهية. وهو موجود دائماً على موائد الأسر الراقية في كل من تركيا وإيران والعراق وسوريا.

الأرز

الأرز من المحصولات الهامة الأخرى التي جعلت البلاد الكردية ليست مكتفية ذاتياً في الغذاء فحسب بل ومن المناطق المصدرة للحبوب الغذائية. وتقتصر زراعته على المناطق التي تغمرها المياه بانتظام أو التي يسهل فيها الري، ونوع الأرز أجود من أنواع القمح والشعير وإذا كانت مياه الري متوفرة أمكن الحصول على أربعة أضعاف الغلة منه. وبذلك يقوم الأرز بدور هام في إقتصاديات البلاد الكردية رغم صغر المساحة المزروعة به. ويعتبر الأرز الذي يزرع على طول ضفاف الأنهار من الأنواع الممتازة. ورائحة الأرز الكردي أزكى كثيراً من رائحة الأرز البيغامي أو البسمطي الذي

يزرع في البنجاب، ويذكرنا نوع الأرز الكردي "بأرز بارا" وتذكرنا حقوله بحقول الأرز المنتشرة في وادي نهر "بارا" بالقرب من قرية شيخان الواقعة في سهول خاجوري (بشاور) على الحدود الشمالية الغربية من باكستان. ويقوم الأرز والدخن بدور هام أيضاً في اقتصاديات الأكراد إذ تستخدم كميات كبيرة منه في المقايضة بالأقمشة والملح وغيرهما من ضروريات الحياة.

المحاصيل الثانوية

ومن المحاصيل الثانوية في بلاد الأكراد الفاكهة والدخان. وتزرع كل أنواع الفاكهة تقريباً في الوديان والبساتين الجميلة بجميع أنحاء المناطق الكردية في تركيا وإيران والعراق وسوريا. ويزرع في البلاد الكردية الخوخ كبير الحجم والمشمش والتين والبرقوق بأنواعه المختلفة والتوت وأخيراً وليس آخراً أجود أنواع الكروم، وحبات العنب الكردي كبيرة بدون بذور ولذيذة جداً. ويجفف العنب الأسود وكذلك العنب الأبيض الكبير ويصدر أجود أنواع الزبيب من البلاد الكردية.

وتمتلئ أسواق تبريز وطهران وبغداد وحلب بأجود أنواع الفواكه الجافة. مثل الخوخ والبرقوق والمشمش والتوت وكذلك بالجوز واللوز والفستق.

وتنمو أشجار البلوط بوفرة في جميع الجبال الكردية وبذلك تزود المدابغ المحلية بمواد الدباغة ويستخدم لحاء وقشور أشجار الرمان التي تنمو بكثرة في جميع أنحاء المنطقة لإعداد أجود أنواع الصباغ.

تربية الماشية

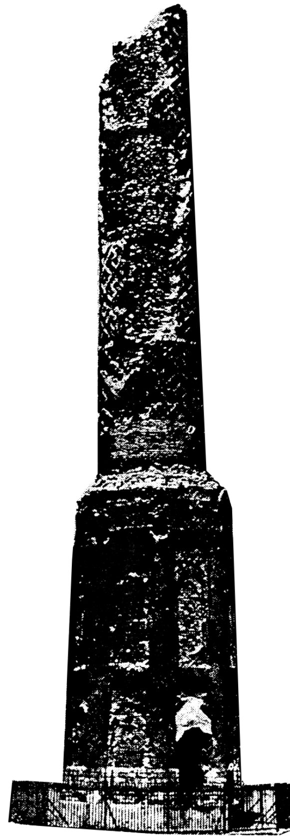
تعتبر هذه المهنة "المهنة القومية" للشعب الكردي كله تقريباً وهي التي تُكون شخصية الكردي والسبب في ملاءَمة مهنة تربية الماشية هو القرب الشديد بين الأرض الشبه الجافة التي لا تروى بانتظام من السهول المزروعة ويزيد عدد الأغنام على جميع أنواع الماشية الأخرى. وإلى جانب حصول الأكراد على اللحم من الأغنام يحصلون منها أيضاً على أنواع جيدة من الصوف الذي يعتبر من سلع التصدير الرئيسية للأكراد. ويستخدم صوف الأغنام أيضاً في صنع السجاجيد السميكة والأبسطة والعباءات وغيرها من الملابس الصوفية. ولا توجد الماعز إلا في المناطق الجبلية تقريباً لملاءمة الجبال لها. وأهم منتجات الماعز اللبن ويستخرجون منه الزبد والجبن وغيرها من

منتجات الألبان، والجبن الكردي ألذ أنواع الجبن في العالم. ويربي الأغوات الأكراد البقر والجاموس أيضاً ولكن الخراف والماعز هي أهم أنواع الماشية وتعتبر العمود الفقري للبلاد الكردية. وتصدر المناطق الكردية الأغنام إلى الأسواق الإيرانية والعراقية والتركية والسورية، وحتى عهد قريب كانت الطريق الرئيسية التي تصدر منها الأغنام هي طريق شمال غربي العراق وسوريا. وكانت الأغنام تساق على أقدامها إلى أسواق الغرب من طريق الرقة وحلب، ومن الصعاب التي توجد في هذه الطريق سقوط الأمطار بشكل غير منتظم في المنطقة مما يؤدي غالبا إلى قحط في المراعي على طول الطريق فتعرقل بهذا عملية نقل الماشية. إلا أن مد السكك الحديدية بين العراق وتركيا وسوريا قد يذلل هذا الوضع. وأصبحت حلب الرقة أهم محطات استلام الماشية المصدرة من الأراضي الكردية. كذلك ثبت أن طرق النقل البرية بسيارات الشحن في كردستان الإيرانية والجزء الشرقي من تركيا أصلح وأسرع وأكثر اقتصاداً من نقل الماشية في مراعي شبة جرداء.

المعادن

النفط هو طبعا الثروة المعدنية الرئيسية لبلاد الأكراد. وتعتبر آبار النفط في الموصل وكركوك من أهم آبار العالم. وإلى جانب احتواء هذه الآبار على احتياطى كبير من النفط فإن من أهم ميزات هذه الآبار أن النفط في جميع أنحاء الأراضي الكردية يندفع من تلقاء نفسه لوقوعه تحت ضغط شديد وبذلك تتوفر تكاليف ضخ النفط إلى سطح الأرض وأهم حقلين لإنتاج النفط في الأراضي الكردية في الوقت الحاضر يقعان في باباغورغور*، وهو جبل قريب من مدينة كركوك في شمال العراق. والحقل الثاني على الحدود الشرقية من العراق وإيران في المنطقة التي تقطنها القبائل الغورانية والكالاهورية في قصر شيرين وكرمانشاه وحولها. ويوجد في كركوك احتياطي هائل من النفط في حقل واحد طوله يتراوح بين ٥٠ و٦٠ ميلاً ويساعد الاتصال المفتوح بداخل هذا الخزان الصخري على تدفق النفط الخام بضغط تلقائي. ويستخرج الآن من حقول النفط بكركوك التي استغلت لأول مرة في ١٩٢٧ ما يربو على ١٠٠٠٠٠ برميل يومياً ولكن في إمكانها إنتاج ٢٤٠٠٠٠ برميل يومياً مع احتياطي يقدر بـ٥٠٠٠ مليون برميل.

وينقل نفط كركوك بواسطة الأنابيب عبر الصحراء إلى مينائي طرابلس وبانياس



مينار في أربيل

على البحر الأبيض المتوسط ومن هناك يشحن في ناقلات النفط إلى معامل التكرير ببريطانيا وفرنسا. وبهذا يعتبر نفط كركوك عاملاً رئيسياً في جعل جيوش أوروبا قادرة على التحرك والعمل في أي حرب. وقد اكتشفت حقول غنية جداً بالنفط في السنوات الأخيرة منذ سنة ١٩٥٦ في عين زاله وفي مناطق القبائل البرزانية الكردية. وقد بدأ هذا النفط أيضاً يتدفق إلى معامل التكرير الأوروبية. ولا يقل إحتياطي عين زاله عن إحتياطي كركوك.

وتقع المنطقة الأخرى المنتجة للنفط بالأراضي الكردية في مناطق القبائل الغورانية والكلاهورية والكتكانية في أقاليم كرمانشاه ونفطخانة وخانقين على الحدود الشرقية العراقية. ويكرر النفط الخام في ألواند بالقرب من خانقين على بعد ٣٠ ميلاً ويستهلك الإنتاج داخل العراق نفسه. وقد أممت الحكومة العراقية هذا الجزء من صناعة النفط.

وفي نفطشاه في الجانب الآخر بإيران ينقل النفط الخام بواسطة خط الأنابيب إلى كرمانشاه بمعدل مائة طن من النفط يومياً. ويستهلك هذا النفط أيضاً محليا وإلى جانب هذه الثروة الهائلة من النفط توجد أنواع كبيرة من المعادن في الجبال الكردية، فيوجد الفحم والحجر الحراري في جميع أنحاء كردستان ولا يمكن تقدير نوع الفحم وغيره من المعادن النفيسة إلا بإجراء بحث جيولوجي دقيق. كذلك يوجد اللجنايت والكروم والملح والجبس في جميع أنحاء الأراضي الكردية. ويبلغ معدل إنتاج اللجنايت في كفري، في منطقة قبيلة خونشان الكردية، ٣٥٠٠ طن سنوياً.

الحيوانات البرية

من الحيوانات البرية في الأراضي الكردية الفهد والوشق والقط البري والدب والضبع والخنزير البري والذئب وابن آوى والثعلب والغزال الأحمر والظبي والحلوف والغزال المقوس الظهر (وأيل آدم البقر الوحشي في سفوح الجبال) والوعل والمغلون إلى جانب السنور والأرنب البري والسنسار وأنواع من القط البري وغيرها من الحيوانات الصغيرة.

ولا يوجد الأسد ولا النمر في الجبال ولو أن الأسد ينجع أحياناً شط نهر دجلة ويكثر النمر في غابات قزوين. ومن طيور الصيد الكبكي – ديرو (أو الحجل الكبير) والسمان والدجاج البري والسنقب وثلاثة أنواع من الحباري كما يكثر الأوز والبط البري.

الفصل الثالث

التاريخ القديم والعصور الوسطى

أصل الأكراد

إذا بحثنا في أصل الشعب الكردي لرجعنا إلى الوراء إلى أصل الإسم الذي يطلق عليهم إلا وهو الكرد. ويعود الفضل فيما أجرى من ابحاث في هذا الموضوع إلى أحد الباحثين الإنجليز –سير هنري رولينسون– الذي حل رموز الخط المسماري في النقوش التي اكتشفت في الحفريات الآشورية القديمة. وسير هنري رولينسون هو الذي حل رموز نقش كورتي "المسماري الذي يصف بالتفصيل الأراضي الواقعة شرقي بحيرة فان والتي تمتد من الجنوب إلى سهول آشور القديمة".

وتحدثت الكتب الإيرانية القديمة المكتوبة باللغة البهلوية عن شعب يسمى غورتي أو سكورتي" وتصف الكتب الموقع الجغرافي الذي يعيش فيه الغورتيون وصفاً ينطبق على ما جاء في النقش المسماري الذي حل رموزه سير هنري ويذكر الملك البهلوي القديم سارتكثر بابا كان" مؤسس الدولة الساسانية الفارسية (٢٢٦م) من بين أعدائه الملك سمديق" شاه الكوردان "أي ملك الأكراد". وعلى هذا الأساس يمكننا القول بكل اطمئنان أن اسم الأكراد القديم وهو "الغورتي" أو "الكورتي" قد اتخذ منذ ذلك الحين شكله الحالي وهو "الكرد أو الكردي".

وقد جاء ذكر الأكراد في كتب المؤرخين خاصة المؤرخين العرب المشهورين "الطبري والمسعودي". ويشير كل مَن أعقبهما من الكتاب إلى الشعب الكردي ليس باسم الغورتيين أو الكورتيين بل باسم "الأكراد" وتقول نظرية أخرى إنه من المرجح أن اللفظ "غورتي" أو "كورتي" مشتق من اسم مملكة "غورتيو" التي سكنها الشعب سالغورتي" فبمرور الزمن أدغم حرف "الراء" بعد الواو – وقد كان أولئك الغورتيون أو الغوتيون قبيلة من القبائل الطورانية المنظمة المتماسكة. وحتى في ذلك الزمن استطاعت تلك القبيلة الطورانية الصغيرة "الغوتية" أن تبسط سلطانها ونفوذها على منطقة واسعة ووضعها المؤرخون القدماء في نفس منزلة الأم الأخرى مثل الآشوريين والحيثيين والسوسيين والعلاميين والأكاديين والبابليين. وقد وقفت هذه المنطقة الجبلية المسماة

بغوتيوم في وجه المغيرين منذ فجر التاريخ. ولا عجب فإن معناها باللغة الآشورية "أرض المحاربين".

وتدل السجلات التاريخية على أن الملوك الغورتيين قد هاجموا الممالك المجاورة مثل سومر واكاد وعلام وأرمينيا. وتبين النقوش المسمارية أن اسم بلاد غوتيوم قد ظهر لأول مرة في لوح سجله "اوغال- انى موندو" حاكم مدينة أدب السومرية التي يطلق عليها الآن اسم بسمايا بمنطقة الفرات جنوبي العراق. وتقول الأقاصيص المحلية التي يرجع عهدها إلى الأزمان الغابرة وكذلك بعض الكتب القديمة بأنه حتى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد كانت توجد مملكة تسمى غوتيوم لها نفس الحدود التي تكون "كردستان" حالياً. وكانت مملكة غوتيوم هذه من القوة والبأس بحيث احتفظت باستقلالها رغم متاخمتها حدود دول معادية قوية مثل سومر وسوبارتو وعلام.

التاريخ القديم

وطبقاً لكاميل طومسون في كتابه "تاريخ كامبردج القديم – الجزء الثالث" وسيدني سميت في كتابه "تاريخ آشور القديم حتى سنة ١٠٠٠ ق.م" إن قلب مملكة غوتيوم هذه كان الرباعي الواقع بين نهري الزاب الأدنى ودجلة وبين جبال السليمانية ونهر ديالا. وكانت عاصمتها اربيخا تقع حيث مدينة كركوك الآن.

ويبدو أن الآشوريين والسومريين والاكاديين كانوا دائما مشتبكين في قتال مع الغوتيين بوضع دفاعي أكثر منه هجومي ويذكر شارغليشاري ملك أكاد وخليفة نواميسين الجبار حروبه مع غوتيوم في سنة ١٩٠٠ ق.م ويفخر بأنه أخذ شارلاك حاكمها أسيراً. وأهدى الملك لاسيراب وهو أحد ملوك غوتيوم الأقوياء صولجاناً مطعما بالأحجار الكريمة لمعبد مدينة سيار البابلية. ونقش لاسيراب كتابته باللهجة الأكادية حيث ذكر آلهة نحوتيوم وكذا الآلهة السومرية انيني (المعروفة باسم نانا انا هينا) وسين اله القمر.

تبين ألواح الصلصال المكتشفة في بابل القديمة الموقع الجغراقي في المملكة الكردية القديمة وكذا الاسم الذي كان يطلق عليها. فقد نُقش عليها بوضوح أن غوتيوم كانت دولة مستقرة وأن سكانها كانوا متحدين يحكمهم ملك واحد منذ سنة ٢٥٠٠ ق.م.

دولة الأكاديين والأكراد

وكانت القبائل الغوتية حتى في خلال العصر الذهبي للساميين القدماء. عصر الدولة الاكادية السامية في الجزء الشمالي من العراق وعاصمتها بابل وامبراطورها شاروكين (سيد الأركان الأربعة) تشكل خطراً متواصلاً على الأباطرة الجبابرة. وتدل النقوش القديمة على أنه حتى في ذلك العصر كانت القبائل الغوتية (الكردية) تغير على أطراف أمبراطورية الاكاديين القوية.

وفي خلال فترة انهيار الدولة الاكادية أغار الملك "أمبيا" أحد الملوك الأكراد على بابل بجيش عرمرم وفرض سلطانه عليها. وحكمت هذه الأسرة الكردية بابل زهاء مائة وأربعة وعشرين عاما وتولى الحكم خلال هذه الفترة عشرون ملكا كردياً. وقد أعلن أحد ملوك هذه الأسرة نفسه ملك أركان العالم الأربعة وبسط سلطانه على منافسيه.

وتعكس النقوش السومرية المعاصرة عهد هذه الأسرة الكردية في صورة رديئة إذ يبدو من هذه النقوش أن القبائل الغوتية فرضت سلطانها بحد السيف، وسفك الدماء، وأينما توجهت قامت بالسلب والنهب وهتك الأعراض وتدمير المدن المزدهرة مثل سومر وأكاد وتقول النقوش أن أولئك الأكراد قد سطوا على المعابد ونهبوا كنوزها وحملوا معهم إلى عاصمتهم أرابخا تماثيل الآلهة إلى جانب سبيهم جواري تلك المعابد الجميلات.

وتمضي النقوش السومرية في وصف طغيان الملوك الأكراد فتقول إنّ مدناً كبيرة قد دمرت عن آخرها واختطفت النساء من أزواجهن. وعم البلاد الحزن والكآبة وانتشر الرعب والفزع من وحوش الجبال وأعداد الآلهة. وأخيراً سقطت الدولة الكردية. وتقول نبوءة أحد كبار الكهنة "السومريين" "سيكون سقوط غوتيوم عن طريق السلاح... وستبتلع أرض أكاد بلاد الأعداء غوتيوم وعلام لمدة ثلاث سنوات" وتحققت تلك النبوءة. تغلب الملك السومري اوتوكيغال مؤسس الدولة الاروكية الخامسة على مملكة غوتيوم في حوالي ٢٠٠٠ قبل الميلاد.

عصر الكاسيين

قبل التحدث عن الكاسيين كما جاء ذكرهم في الكتب القديمة أود أن أزيل بعض

الشكوك عن أصل هؤلاء الكاسيين.

جاء ذكر الكاسيين أو قبائل كاششو في الكتب القديمة بأنهم أولئك المحاربون الشرسون الطوال القامة ذوو البشرة البيضاء وما هم إلا أجداد سكان منطقة خوزستان حالياً الواقعة جنوب غربي جبال زاغروس بإيران.

ومن المحتمل أن لفظة كاششو قد تعرضت للتغيير والتبديل بمرور الزمن، أو انه قد حدثت أخطاء عند ترجمة هذه الكلمة عن النقوش المسمارية. ولكن كل الدلائل سواء وصف البلاد الجغرافي أو صفات قبائل الكاششو الجسمانية تجعلنا نستنتج بأن بلاد كاششو (كاششوستان) ماهي إلا (خوزستان) حالياً.

ومن المحتمل أن يكون رجال القبيلة الكاسية (وهي من بطون القبائل الكردية) هم أجداد الأكراد الغورانيين. وقد اجتاحت هذه القبيلة بابل بعد سنة ٢٠٠٠ ق.م في عهد الملك السامي شمشير ايلونه ابن حمو رابي. وأحرق هؤلاء الكاسيون المدن والقرى ونهبوا البلدان وتوغلوا حتى قلب بابل واستمر حكم الملوك الكاسيين في بابل زهاء أربعة قرون. وتعتبر أسرتهم الأسرة الملكية الثالثة في بابل.

وإلى عهد قريب كانت المعلومات عن هذه الدولة قليلة ناقصة إذ كان الاعتقاد السائد هو أن حكم الكاسيين كان مثل حكم الغورتيين في سومر وأكاد همجيا متأخرا. ولكن أبطلت هذه النظرية بعد أن اكتشفت مؤخرا في منطقة خوزستان بعض النقوش المخلفات من الأواني المعدنية. وثبت الآن أن الكاسيين كان لهم آلهتم الخاصة منها الإله كاششو وخاربي وسورياش وشيباك وخول والآلهة شماليا سنيدة الجبال الشاهقة... التي تتخطر بقوامها الجميل فوق قممها.

واهتم الملوك الكاسيون أيضاً بالتقاليد والمشاعر الدينية لشعب بابل. وتسمى غانداش أول ملك كاسي تغلب على بابل حوالي ١٦٠٠ ق.م باسم "ملك المناطق الأربع" قد سجل في أحد نقوشه باللغة البابلية إعادته بناء معبد أنيل -إله بابل- ووجه عنايته إلى تحصيل الضرائب الخاصة بمعابد بابل بصورة منظمة.

وتسمي ملك كاساخر هواغوم الثاني باسم "ملك بلاد غوتي".

وبذلك يحتمل جدا أن قبيلة كاسي (وهي التي تسمى القبيلة الغورانية اليوم) قد احتلت غوتيوم قلب بلاد الأكراد القديمة. وفي خلال الفترة الأخيرة من حكم الكاسيين في بابل حوالى (١٥٠٠-١٤٠٠ ق.م) نمّى الملوك الكاسيون علاقات ودية مع الدول

الكبرى آنئذ وهي مصر الفرعونية وبلاد الحيثيين وآشور. وتزاوجت الأسرتان المالكتان –الكاسية والمصرية وتبادلتا الهدايا– وبمرور الزمن اندمج الكاسيون في أمة بابل العظيمة.

الآشوريون والملوك الغوتيون

تدل النقوش المكتشفة في نينوى عاصمة آشور القديمة على أن الملك الآشوري بودي – أيلو (حوالى ١٥٠٠ ق.م) ابن بعل نياري وخليفته قد شن حرباً شعواء على قبيلتي تروكي وتيجيمكن اللتين تسكنان جهة غوتيوم (بلاد الأكراد) ومد أطراف مملكة آشور إلى ما وراء غوتيوم.

وخلف أدب نياري الأول حوالى (١٤٥٠ ق.م) نقشاً تم اكتشافة في كالح شيرات (آشور) ويدل هذا النقش على أنه مثل أسلافه قد شن معظم حروبه على الأطراف الشمالية الشرقية من مملكته وحاول عن طريق بناء المدن أن يحيي ازدهار هذه المنطقة التي تقطنها قبائل شوهاري ولولومي وغوتي وكاشو (أجداد قبائل زايبار وبوزان وغيرها من القبائل الكردية في الوقت الحاضر).

كان شلمانصر الأول حوالى (١٤٠٠ ق.م) أحد ملوك آشور العظام وأول من رفع شأن آشور إلى مستوى أعلى من مستوى بابل وكانت القبائل الكردية حتى في عصر الملك العظيم شلمانصر تعتبر مصدر خطر كبير على مملكة آشور. لذلك استخدم طريقة مبتكرة لوقف تيار الغزاة الأكراد بإنشاء المستعمرات على طول الحدود الشمالية الشرقية من إمبراطوريته وإرسال المقيمين الآشوريين ليكونوا حصنا لبلاد مابين النهرين ضد قبائل الشمال – وبعد ذلك عندما اضمحلت قوة الآشوريين أصبحت هذه المستعمرات محصورة ولكنها تمسكت بكيانها إلى أن أنقذها آشور نظير بال الذي استفاد منها كجسر لإنشاء مقاطعة آشور الجديدة في طوسخان.

سقوط الامبراطورية الآشورية

كان افول نجم آشور سريعا مثل صعوده. وليس لدينا معلومات كافية عن فترة المائة عام الأخيرة من قيامها، بل لا نعرف حتى أسماء الملوك الذين حكموا خلال هذه الفترة. ومع أن ملوك آشور لم يتمكنوا من التغلب تماماً على الغورتيين إلاّ أنهم استطاعوا حصرهم في جبالهم. ولكن بسقوط الامبراطورية الآشورية سنة ١٧٠٠ ق.م تدفق سيل

الغورتيين من أعالي الجبال وانتشروا مثل الجراد في كل ناحية وعندما استولى قورش الملك الإيراني على بابل ٥٣٨ ق.م كانت فرقة الأكراد بمثابة طليعة الجيش الإيراني.

وقد وجد زينوفون القائد اليوناني القبائل الكردية متحصنة في الممرات الرئيسية لجبال طورس. من مدينة الموصل حتى نهر كتريتيس (ممر بوهتان اليوم) ونهر دجلة الذي كان يعتبر حدوداً بين أرمينيا القديمة وبلاد الأكراد.

الغزو الفارسي

وجه الملك قورش (٥٢٨–٥٢٩ق.م) مؤسس الأسرة الأتشميندية الإيرانية، الضربة القاضية ضد بابل المتداعية والحضارة الآشورية عام (٥٣٦ق.م) عندما هاجم بابل وضمها للامبراطورية الفارسية.

وفي أثناء الهرج والمرج انتهزت القبائل الكردية الفرصة لتصطاد في الماء العكر. فقد غزا الملك اوغبار وملك غوتيوم مدينة بابل بفرسانه الأشداء وقام بالقتل والسلب والنهب.

وأعقب ذلك فوراً فتح الإيرانيين لبلاد ما بين النهرين ومد سلطانهم عبر غوتيوم وما وراءها في الشمال والشمال الشرقي. واستمر الحكم الإيراني على بلاد ما بين النهرين زهاء قرن، ثم جاء الاغريق بقيادة الاسكندر الأكبر.

وبقدوم الاغريق ندخل في فترة من التاريخ المدون خاصة وان السجلات التي خلفها المؤرخ الاغريقي العظيم هيرودوت واضحة وشاملة. وحتى خلال فترة الاحتلال الاغريقي القصيرة للشرق الأوسط لم يغلب الأكراد غلبا حقيقياً. وقد سجل المؤرخ هيرودوت هجمات الأكراد من وقت لآخر وسطوهم على القرى والقوافل بل وعلى بعض الكتائب الاغريقية المنعزلة. ولم يخاطر الاغريق بالتوغل داخل منطقة الأكراد الجبلية.

ودوّن هيرودوت أيضاً في مؤرخاته أن الاغريق شجعوا الأكراد على الهجرة من معاقلهم الجبلية تجاه أطراف إيران القديمة. ففي ذلك العهد استقرت قبائل كردية عدة نهائيا حول الأطراف الشمالية والشرقية من إيران. ويتضح من سجلات هيرودوت ان القبائل الكردية قد هاجرت في جماعات إلى ما يسمى الآن ببلوشستان وبدؤا يدفعون السكان الأصليين شرقاً.

في حوالى سنة ٤٠٠ق.م عندما كان زينوفون وجنوده العشرة آلاف يتراجعون عبر

كردستان نحو البحر الأسود واجه أولئك الكردوخيين (الأكراد) القساة القلوب ووصفهم كما يلي سهم قوم لا يبالون إذا ناداهم أحد ولا يبدون أي مودة أو صداقة″... وقد تجمع بعض الأكراد وهاجموا مؤخرة الجيش الاغريقي بالحجارة والسهام فقتلوا بعض الجنود وجرحوا البعض الآخر. وكان عدد الأكراد قليلاً لأن الاغريق لم يلقوا لهم بالاً ولو أنهم كانوا قد تجمعوا في عدد كبير لتعرض جانب كبير من الجيش الاغريقي للفناء... وأثناء الليل أوقد الأكراد حولهم النار فوق قمم الجبال وراقبوا مراكز كل منهم، وضيق الأعداء الخناق على الجيش الاغريقي خاصة في ممرات الجبال الضيقة حيث استخدموا أقواسهم ومقاليعهم، انك إذا نظرت إلى تلك الجبال (جبال كردستان) للاحظت وعورة مسالكها. فإن الطريق الوحيدة التي يمكنك رؤيتها منحدرة غاية الانحدار وقد أشرف عليها عدد كبير من الرجال الذين احتلوا الممر لحراسته. وبعد هذا النجاح ظهر الأكراد فوق ربوة في مواجهة الجبل الثالث وبدأ زينوفون يحادثهم بواسطة بعض المترجمين حول عقد هدنة وطلب منهم أن يسلموه القتلى. وأجابوا بأنهم سيسلمون القتلى على شريطة ألا يحرق الاغريق قراهم... وتقدم الأكراد في عدد كبير وهم يصرخون بصوت عال... ودحرجوا قطعاً كبيرة من الحجارة.

لم يذكر المؤرخون الاغريق إلا النادر من مآثر الأكراد وأعمالهم. وكان الأرمن وهم جيران الأكراد، قد احتفظوا بمستوى عال جداً من الحضارة ومن ثم أخذ قدماء مؤرخي الأرمن يذكرون الأكراد كثيراً.

أخضع الامبراطور الأرمني تيغرانيس الأكبر عام (٩١–٥٥ق.م) الأكراد الذين كانوا مقيمين حول بحيرة فان وبحيرة أورميا لسلطانه وكان الأغوات الأكراد يدفعون الجزية بانتظام للامبراطور الأرمني. كما جند عدد من الأكراد في فرسان تيغرانيس الأكبر. وكان الأكراد ممثلين في بلاط ذلك الامبراطور الأرمني العظيم. وكان لخمسة على الأقل من زعماء القبائل الأكراد أماكن متساوية مع أعظم النبلاء والأمراء الأرمن في مجلس الامبراطور.

وعندما اعتنق الأرمن الديانة المسيحية ظل الأكراد على وثنيتهم وناصبوا الأرمن المسيحيين العداء السافر. ولكنهم بعد أن اعتنقوا الإسلام أخذوا يبدون تسامحاً دينياً ويقيمون علاقات طيبة مع الأرمن المسيحيين. فقد اعتبر المسلمون اليهود والمسيحيين سأهل الكتاب″ أي المؤمنين بالعقيدة الأولى المنسوخة بالإسلام، ولذا احترموا

المسيحيين أكثر من الإيرانيين الوثنيين. وفي زمن خالد ابن الوليد (منتصف القرن الثامن الميلادي) اعتنق الأكراد الإسلام. وقد دخل الأكراد في الإسلام قبل الإيرانيين بمدة طويلة وظلوا متمسكين بالمذهب السني. وكان للإسلام أثر عظيم في هداية الأكراد. فمن تعاليم الإسلام الخضوع التام لإرادة الله والتسامح للجميع خاصة المسيحيين واليهود الذين هم من أهل الكتاب.

ومن الآثار العظيمة الأخرى لاعتناق الأكراد للإسلام أن هذا الدين الحنيف قد هذب نفوسهم ونمى فيهم روح النظام واحترام القوانين وعلاقات حسن الجوار وذلك لما يأمر به من إقامة الصلاة في أوقاتها الخمس يومياً وصوم رمضان وما ينهى به عن الفحشاء والمنكر.

وربط الإسلام أيضاً بين الأكراد وجيرانهم العرب والفرس والأتراك وبذلك نجح عن طريق القوة الروحية في تحقيق ما فشلت في تحقيقه قرون من الحروب وسفك الدماء. ألا وهو جعل الأكراد مواطنين صالحين يحترمون القانون ويقيمون علاقات حسن الجوار مع جيرانهم.

الفصل الرابع

فترة ما بعد ظهور الإسلام

ومن أهم مظاهر التاريخ الكردي حتى ظهور الإسلام وخلال فترة طويلة بعد ظهوره أنه لم تقم حكومة موحدة لجميع الأراضي الكردية تحت حاكم كردي واحد. ولا شك أن التاريخ قد سجل ظهور ملك فرض حكمه على معظم أجزاء البلاد الكردية في أكثر من مناسبة. ولكن مثل هذا الملك كان إما تترياً أو تركياً أو عربياً أو إيرانياً ولكنه لم يكن أبداً كردياً. ومن المظاهر الهامة الأخرى أن معاقل الأكراد الجبلية لم تقهر أبداً ولم تخضع تماماً لأي نفوذ أجنبي وقد احتفظ أغوات الأكراد وبكواتهم بأوضاعهم المستقلة واعتزازهم بقبائلهم ولم يخضعوا لأي نفوذ أجنبي مهما كان. وبعكس ذلك مناطق الباثان في منطقة الحدود الشمالية الغربية من باكستان إذ لم يحكم الباثان أنفسهم فحسب بل بسطوا نفوذهم على معظم أجزاء شبه القارة الهندية ■ الباكستانية.

وبقي الأكراد لفترة طويلة بعد ظهور الإسلام مسالمين ولم تقع أي غارة كردية على الامبراطورية الإسلامية الحديثة التكوين. ولم يحاول الخلفاء التدخل في الكيان المستقل للاغوات والبكوات الأكراد فكانت النتيجة أن أعاد كثير من الأغوات الأكراد تثبيت سلطانهم القديم في مقاطعة "أزربيجان" كلها.

وأقام أبو علي بن مروان بن الدستك البليخي الشاربوختي مملكته في فارقين على بعد ٢٠ ميلاً من دياربكر. وبذلك أرسيت دعائم الأسرة المروانية الكردية العظيمة التي حكمت فارقين ودياربكر وجزيرة ابن عمر من سنة ٩٨٥ إلى ١٠٩٦ ميلادية –وحكم أحد ملوكها– أبو نصر أحمد زهاء ٥٣ عاماً وجمّل مدنه بالمباني الفخمة والحمامات والجسور وأقام محطات للقوافل. ولكن سرعان ما دب الخلاف بين أفراد الأسرة المالكة للاستحواذ على العرش وكان بعضهم يستنجد بالبيزنطيين النصارى. وبذلك كانت عوامل الحسد والمنازعات بين أفراد الأسرة المالكة وسياسة الحريم من الأسباب التي أدت إلى تقويض أركان أول دولة كردية مسلمة ومهدت لسقوطها نهائيا على أيدي قوم من الغزاة المغاوير اجتاحوا آسيا الصغرى في أوائل القرن الحادي عشر.

الغزو السلجوقي

لم يكتب لدولة المروانيين أن تبقى كثيراً إذ سرعان ما داهم سهول العراق وإيران الخصبة قوم من المحاربين الأشداء ينتمون إلى عنصر تركي– مغولي ويدعون السلاجقة. وقد برز هؤلاء السلاجقة من وسط صحارى آسيا الوسطى واجتاحوا كل شيء مروا به ويرجع أصل السلاجقة إلى بعض بطون قبائل أوغهوز في تركستان الصينية، وكانوا حديثي عهد باعتناق الإسلام. وقد دعم الإسلام قبائل أوغهوز وزاد من تماسكها.

وأحرز هؤلاء التركمان انتصارات باهرة على دويلات إيران والعراق المتداعية لتفوقهم في الحركة التي مكنت لها جيادهم السريعة العدو إلى جانب ما عرف عنهم من شدة البأس والشجاعة النادرة. تغلبوا على آخر ملوك غزنة وتوغلوا في سهول إيران الغنية. وفي خلال شهور عدة كان السلاجقة في قلب بغداد دار خلافة المسلمين. وقد ذكر ابن الأثير المؤرخ العربي العظيم، المقاومة التي لقيها السلاجقة على أيدي الأكراد سواء في كرمانشاه أو في شمال العراق.

طغرل بك السلجوقي

في سنة ١٩٠٤م هزم طغرل بك الأول الملك مسعود الغزنوي الأفغاني (خليفة السلطان الغازي محمود الغزنوي) واستولى على خراسان. وقطع طغرل بك بلاد إيران كأنه سيف قاطع وتوغلت جيوشه في سرعة فائقة جنوباً حتى همذان وأصفهان وغرباً حتى بحيرة أورميا. وهناك بالقرب من مهاباد ورزايا لاقى طغرل بك مقاومة شديدة من قبل الأكراد الذين قاتلوا ببسالة وأوقفوا توغل السلجوقيين داخل البلاد الكردية.

وقد سجل المؤرخون المعاصرون الأمجاد التي حققتها قبيلتا بلباس وغوران الكرديتان. وحتى أثناء استيلاء طغرل بك على تبريز لم يسمح الأكراد للغزاة بأن ينعموا بأي راحة. فإن استطاع القائد التركماني أن يدمر قرى الأكراد في سفوح الجبال إلا أنه لم يتمكن من اقتحام معاقلهم الجبلية. وفي هذا يوجد تشابه مع الحملات التي شنها المغول على المرهاتا في جنوب الهند ولكن الفرق هو أن المرهاتا بقيادة سيفاجي اتبعوا مناورات ماكرة دنيئة بعيدة كل البعد عن أصول الفروسية بينما قاتل الأكراد العدو ببسالة وعنف.

ويقول كثير من الأكراد المنتمين إلى أصل تركي أن نسبهم يتصل بطغرل بك. فقد لجأ بعض عساكر طغرل بك لأسباب معينة إلى الأغوات الأكراد وعاشوا بين ظهرانيهم منذ ذلك الحين في سلام ووئام واندمجوا كلية بالشعب الكردي.

أما خليفة بغداد آنئذ فقد أصبح أداة في أيدي البويهيين. ولكن بعد ما علم الخليفة القاسم بانتصارات طغرل بك رحب به عند قدومه بغداد في ١٨ ديسمبر ١٠٥٥ م أيما ترحيب. وبذلك أصبح طغرل بك القوة المحركة وراء الخليفة القاسم العباسي.

قلنا إنّ الأكراد لم يدعوا السلاجقة الغزاة أن يعرفوا طعم الراحة مما اضطر طغرل بك إلى أن يتولى بنفسه قيادة العمليات الحربية ضد الأكراد في منطقة رزايا فانتهز البساسيري (أحد قواد بني بويه) فرصة خروج طغرل بك لقتال الأكراد فقام بحركة موالية للفاطميين وأرغم الخليفة القاسم على التنازل عن الخلافة للخليفة الفاطمي المستنير الذي اتخذ القاهرة قاعدة لملكه، ولما علم طغرل بك بذلك أوقف حملاته على الأكراد وهرع إلى بغداد وأعاد الخلافة إلى القاسم. وقبض على البساسيري وقتله وبذلك زالت سلطة البويهيين إلى الأبد. وهكذا أتاح انشغال طغرل بك بالقضاء على الفتنة في بغداد فرصة ذهبية للأكراد الذين سارعوا بتدعيم مراكزهم في تلاعهم الجبلية.

وتعتبر الفترة التي حكم خلالها السلاجقة إيران والعراق وأرمينيا حقبة عظيمة من تاريخ الشعب الكردي. وفي خلال عهد السلطان ملك شاه (١٠٧٢-١٠٩٢ م) أخذ الحكام السلاجقة يتوددون إلى القبائل الكردية. وقد كان السلطان ملك شاه شرف تتلمذ على يد أعظم ساسة ذلك العصر ألا وهو نظام الملك.

نظام الملك والعصر الذهبي للمماليك

ترك لنا ابن خلكان المؤرخ العربي الشهير سجلات قيّمة للأحداث التي جرت في زمنه فقد كتب عن النفوذ الكبير الذي كان لنظام الملك وهيبته على شوؤن الدولة زهاء ثلاثين عاماً.

ولعل نظام الملك هو أول سياسي في تاريخ العالم يضع علاجاً فعالاً للمشكلة القبائلية العويصة قد يكون العلاج الوحيد الناجح لهذه المشكلة حتى في زماننا هذا. ففي كتابه سسياستنامه″ بيّن نظام الملك أن أحسن طريقة لمسالمة القبائل الجبلية

(الذين يقطنون أماكن يصعب على حفظة القانون والنظام الوصول إليها) هي "أن يسمح لهم بمزاولة الحكم الذاتي التام وتحسين النظم الإدارية خارج المناطق القبائلية وتوفير أحوال معيشة عالية حتى ينجذب الأكراد من أوكارهم الجبلية فيصيروا مواطنين يحترمون القانون".

ولم تشن أي حملة ضد الأكراد طوال ذلك القرن –فيما عدا بعض المناوشات بين الفينة والفينة– وفي الواقع كان للنهضة الأدبية والثقافية في ذلك العصر آثار طيبة في لغة الأكراد وثقافتهم بل حتى في طرق معيشة الأكراد أنفسهم. ويقال إنّ الحزام الجميل الذي يتمنطق به الكردي دائماً قد بدأ استعماله منذ ذلك الحين.

وأقطع نظام الملك أيضاً أغوات الأكراد أراضي مستقلة وتمتع هؤلاء الأغوات بالاستقلال التام في شؤونهم الداخلية ولكن كان عليهم أن يزودوا السلطان بالأجناد المدربين كلما طلب منهم ذلك، وبذلك حلت المشكلة الإدارية ومشكلة تكوين جيش مدرب مجهز وفي نفس الوقت ظل الأغوات محتفظين باستقلالهم قانونياً.

غير أن هذا النظام قد أضعف الأمبراطورية السلجوقية على مر الأيام، إذ أنه منع الاقطاعيات الحربية المتوارثة في جميع أنحاء الامبراطورية بما في ذلك إيران والعراق وأرمينيا إلى بلخ وبخارى شرقاً، وسوريا وفلسطين جنوباً، قد أدى إلى قيام أول دويلة شبه مستقلة. وسرعان ما نالت هذه الدويلات استقلالها في مختلف أنحاء الامبراطورية الواسعة بينما احتفظ السلاجقة بسلطانهم في إيران حتى ١١٥٧.

عصر النهضة الفكرية

كما ذكرت من قبل يعتبر النصف الثاني من القرن الحادي عشر عصر النهضة الفكرية في الشرق الأوسط، ومما شجع على نمو الفكر والثقافة والأدب والأبحاث الإدارية ما امتاز به ذلك العصر من استتباب السلام والرخاء إلى جانب اهتمام الحكام أنفسهم بالآداب والعلوم والفنون. وساهم كثير من الشخصيات أمثال نظام الملك والغزالي وعمر الخيام في تنمية الفنون الإدارية والتصوف والرياضيات. وإن الشرق ليفخر بأمثال هؤلاء الرجال العظام الذين كانت مساهمتهم بمثابة المنارة التي كانت تهتدى خلال أحلك فترة من تاريخ العالم وعلى أثرها بدأ صعود نجم الغرب وتفوقه على الشرق في ميادين العلم وفنون الحكم.

ولم يذع صيت نظام الملك في الآفاق بسبب مؤلفه العظيم "سياستنامه" فحسب بل ولعنايته بالعلماء والرياضيين والفقهاء والأدباء وتشجيعه إياهم. وزود نظام الملك كل مدينة كبيرة وقرية صغيرة في كردستان بمعهد علمي ومدرسة وأوقف عليها أملاكاً شاسعة من أجل إعانة طلاب العلم والباحثين. ولاتزال مدرستا النظامية في نيشابور وبغداد أثراً حياً من الآثار خلفه ذلك السياسي العظيم الذي عاش في منتصف القرن الحادي عشر.

وممن تخرجوا من المدرسة النظامية في نيشابور الغزالي حجة الإسلام المفوه، وفي منطقة نيشابور الجبلية التي لاتزال تشتهر بمناجم الفيروز وضع ذلك الفقيه المتصوف مؤلفاته الخالدة حول الدين والتصوف. ولقد تأثر الغزالي بمنطق أرسطو الجدلي ونظريات أفلاطون. وهو يعتبر بحق طليعة من وفق بين ثمرات العلم الصحيح والفكر الخالص وبين خرافات العامة والأفكار الغير منطقية التي سادت الفلسفة الإسلامية آنذاك. ويقول ابن خلكان إنّ الأكراد كانوا أكثر عددا من غيرهم في كل من مدرستي النظامية ببغداد ونيشابور. وبما أن التصوف وصفاء الفكر من طبع الأكراد فقد اندمجت ذاتيتهم القبلية ومصالحهم الخاصة في إطار المصالح الإسلامية والإنسانية الواسعة.

وكان عمر الخيام المعروف في أوروبا وجميع أنحاء العالم بدعوته للتمتع بالحياة والحرية وبرباعياته، كان في الواقع أعظم رياضيي ذلك القرن. وكان أول من نجح في حل المعادلات التكعيبية ليس بالطرق الجبرية فحسب بل وبالطرق الهندسية أيضا. وقد وضع عمر الخيام بالاشتراك مع آخرين التقويم الجلالي (نسبة للسلطان جلال الدين ملك شاه الذي كلفهم بهذا العمل) وكان ذلك التقويم يفوق التقويم الجريجوري الحالي من حيث الصحة والإتقان.

وكان السلاجقة في أوج مجدهم عندما أغتيل نظام الملك بيد آثمة ١٠٩٢. وبعد ذلك بدأ اضمحلالهم وانحطاطهم التدريجي. وبعد اغتيال السلطان ملك شاه نفسه خلفه ابنه الطائش السكير السلطان باركياروخ (١٠٩٤-١١٠٤). ولسوء الحظ قطعت الصلة بين خليفة بغداد الذي لم يبق له من السلطة غير الزعامة الاسمية للعالم الإسلامي وبين الملوك السلاجقة الذين قرروا إقامة عاصمتهم في إيران. وفي نفس الوقت عاد الصليبيون إلى نشاطهم وفي أثناء خلافة المقتفي تعرضت فلسطين المقدسة لخطر الغزو.

وفي هذه الأثناء عمّت العالم الإسلامي في الشرق الأوسط المجازر البشرية. وكانت السلطة الحقيقية في أيدي السلاجقة الذين كانوا بدورهم في انحلال ولا يرجى منهم أي فائدة. وكانت السلطة الاسمية والتأثير الوحدوي بين المسلمين في يد الخلفاء الذين لم يكن لهم حول ولا قوة ولم يكن في وسعهم تحقيق أي هدف وتحولت الإقطاعيات الحربية التي أقامها السياسي الكبير نظام الملك إلى إمارات مستقلة، الأمر الذي زاد الامبراطورية الإسلامية ضعفاً وانحطاطاً. وقامت الخصومات والمنافسات بين الدويلات الإسلامية وحاولت كل منها التغلب على الأخرى. ومع أن النهضة الفكرية كانت موجودة إلا أن حب الذات والتنافس على السيطرة بين الزعماء أضف إلى ذلك قلة العلم واعتداد العرب بأنفسهم، كل ذلك أوجد ظروفاً تشبه كثيراً الظروف التي أدت إلى تقسيم فلسطين وخلق دولة إسرائيل سنة ١٩٤٧.

وقام الصليبيون بهجماتهم من جديد. ويعطينا ابن الأثير صورة مؤثرة عن تقدم الأفرنج وطردهم المسلمين من ديارهم وذبحهم المواطنين المسالمين من رجال ونساء وأطفال وإحراقهم القرى وإتلافهم المحاصيل الزراعية. ومن جهة أخرى كان العالم الإسلامي أجمع ضعيفاً عاجزاً وكان المسلمون منصرفين إلى دس الدسائس واغتيال بعضهم بعضاً ومن وسط هذه الظلمات التي كان يتخبط فيها المسلمون ظهر بطل من أبطال التاريخ الإسلامي ولم يكن ذلك البطل الذي يحق للأكراد أن يفخروا به إلا السلطان صلاح الدين الأيوبي.

صلاح الدين الأيوبي

والعصر الذهبي للأكراد

لعل أجمل عهود الأكراد في تاريخهم كله هو عهد الزعيم الكردي العظيم المعروف في التاريخ بالسلطان صلاح الدين الأيوبي.

بدأ الاخوان أيوب وشيركوه إبنا الزعيم الكردي الكبير شادي حياتهما السياسة في شمال بلاد مابين النهرين وكان أيوب الأخ الأكبر والياً على مدينة تكريت – التي تقع على بعد ١٠٠ ميل شمالي بغداد– من قبل الخلافة العباسية ببغداد. ثم ترك الاخوان تكريت فيما بعد واليا وجههما شطر دمشق حيث عمل الأخ الأصغر في خدمة عمادالدين زنكي وعمل أيوب الأخ الأكبر في خدمة أبيه نورالدين والي دمشق.

وعندما دب الخلاف على منصب الوزارة في مصر، طلب شاور ابن وزير مصر المقتول مساعده نورالدين والي دمشق الذي كلف شيركوه الكردي بالذهاب إلى مصر ومساندة الوزير الشرعي فقاد جيشاً مكوناً من الفرسان الأكراد والمشاة السوريين وهزم الثوار وأعاد شاور إلى القاهرة سنة ١١٦٤.

وفي هذه الأثناء ظهرت مقدرة الفتى الصغير صلاح الدين ابن أيوب أخي شيركوه الأكبر وذاع صيته كمحارب شجاع ذكي بارع في قيادة قواته في المعارك (ولد صلاح الدين سنة ١١٣٧ ميلادية (٥٥٢هـ) في تكريت حيث كان والده أيوب الكردي حاكما).

ودخل صلاح الدين في خدمة والي مصر عن طريق عمه شيركوه. وفي ١٨ يناير ١١٦٨ رشح العادل حاكم مصر شيركوه ليحل مكانه وزيراً ولكنه لم يبق في الحكم إلا شهرين ثم مات وخلفه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي الذي استطاع بذكائه وفطنته أن يثبّت حكمه في مصر. وسرعان ما أخذ يضع الخطط لاستعادة فلسطين من أيدي الصليبيين.

وفي هذه الأثناء توفي نورالدين زعيم صلاح الدين في دمشق وخلفه ابنه الضعيف الملك الصالح. فانتهز الصليبيون هذه الفرصة وحاصروا مدينة دمشق. فهرع صلاح الدين من مصر إلى الشام وتمكن بمساعدة الفرسان الأكراد من هزيمة الصليبيين وأعاد المدينة إلى الخلافة العباسية.

ولسوء الحظ وقع سوء تفاهم بين الملك الصالح ابن حاكم سوريا الراحل نورالدين وبين صلاح الدين الأيوبي. وبدلاً من أن يعرض الملك الصالح الأمر على الخليفة في بغداد طلب مساعدة الصليبيين ودارت معركة بين الفريقين داخل أسوار مدينة دمشق هزم على أثرها جيش الملك الصالح وحاصر صلاح الدين مدينة حلب. عندئذ أدرك الملك الصالح عجزه فاضطر إلى عقد الصلح والتنازل عن دمشق لصلاح الدين ومنذ ذلك الحين أبطل ذكر اسم الملك الصالح من على المنابر في سوريا والحجاز ومصر.

وهكذا أصبح صلاح الدين سلطاناً مستقلاً على مصر والشام بموافقة الخليفة العباسي المصدر الأعلى لجميع السلطات الشرعية. وشيئا فشيئا وقعت حلب والموصل تحت سلطانه وقبل نهاية ١١٨٢م أصبح صلاح الدين السيد الوحيد في العالم الإسلامي واعترف بسيادته جميع ملوك وسلاطين آسيا الغربية بما فيهم سلطان ايقونيوم وأمير أرمينيا المسلم.

ومن أهم مظاهر عهد صلاح الدين انه لا يدعو بنفسه إطلاقا سيدا كرديا ولا حتى كملك كردي يحكم العرب. ولم يفرق صلاح الدين أبدا من كردي وغير كردي عند اختيار وزرائه –ومستشاريه وقواد وأفراد بلاطه– وفي الواقع لم يوجد حينذاك الشعور السائد الآن بالعصبية الكردية أو غير الكردية. ويكفي أن يقول أي شخص أنه مسلم. وربما كان هذا هو السبب الذي بلغ بالإسلام إلى ذروة مجده ومكنه من التغلب على القوى المشتركة للتعصب الأوروبي.

عرف السلطان صلاح الدين في التاريخ المعاصر باسم صلاح الدين الأيوبي وليس الكردي. لا لأن صلاح الدين كره أن يدعى كردياً ولكن لأن الشعور بالعصبية القبائلية القائم بين المسلمين اليوم لم يكن موجوداً بينهم آنذاك. ولسوء الحظ كان هذا الشعور المعقد نتيجة بل وسبباً لانحطاط المسلمين واضمحلال شأنهم.

ومع أن الموصل وآميديا وراندوز. وهي من أقدم مراكز الأكراد كانت تحت نفوذ السلطان صلاح الدين إلاّ أنه لم ينقل عاصمته إلى هذه المنطقة. ولم يعطها أكثر مما تستحقه من الاهتمام. فقد كانت بلاد الأكراد بالنسبة له وهو أعظم كردي وجد. مثل أي جزء آخر من الامبراطورية الإسلامية. وجعل مصلحة الإسلام فوق مصلحته الشخصية ومصلحة جماعته.

إن مآثر صلاح الدين وأعماله المجيدة معروفة في أوروبا كما هي معروفة في جميع أنحاء الشرق. لقد خلف هذا الكردي العظيم ذو المروءة النادرة لكل من جاء في أعقابه من الملوك والحكام أصولاً سامية بين الغالب والمغلوب.

في سنة ١١٨٩م عندما نقض الفرنجة الهدنة بشنهم الهجوم على قوافل المسلمين وذبحهم تجارهم جهز صلاح الدين حملة تأديبية وحاصر الكوك كما بعث ابنه (الملك الافضل) على رأس قوة صغيرة إلى الجليل لمنع حاميتها الصليبية من التحرك من مكانها. وتتجلى هنا مقدرة صلاح الدين العسكرية إذ استدرج العدو بمناورة ماهرة إلى داخل واد مقفل بجانب جبل حطين حيث قرر إبادة قوات الفرنجة عن آخرها. وبذلك أرغم العدو على خوض معركة اختار هو أرضها.

ففي صباح اليوم التالي عندما خرج الفرنجة من الوادي وجدوا أنفسهم منفصلين عن البحيرة المواجهة حيث أقام صلاح الدين قاعدة قوية. ولم يكن للفرنجة من مفر إلا أن يتقدموا إلى الأمام. وتعرضت قوة فرسان الصليبين الثقيلة العدة لأعنف هجوم مركز

شنه فرسان المسلمين الأخف عدة والأسرع حركة. وكانت النتيجة أن هزم الصليبيون شر هزيمة في يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر ربيع الثاني ٥٨٣ وبلغ عدد قتلاهم عشرة آلاف قتيل وأسر جي دي لوزينان وأحسن معاملته.

وتعقب صلاح الدين العدو بكل همة ونشاط وقبل أن ينظم الفرنجة صفوفهم استولى صلاح الدين على قلعة طبرية، وكان من بين الأسرى زوجة ريموند صاحب طرابلس وأحسن معاملتها وأرسلها إلى زوجها معززة مكرمة. لم تكن صفات الفروسية السامية هذه معروفة لدي همجية الغرب وبربريته ولا لدى مكر الشرق وغدره.

لقد ساعد نقاء روح القائد الكردي وجنوده وعفتهم على رفع روحهم المعنوية لدرجة انه لم تكن تقف أمامهم أي صعاب أو مشاق. لم يقهرهم أي جيش ولم تجرؤ أي قلعة أو مدينة على مقاومة هجماتهم. فقد استولى جيش صلاح الدين على نابلس وأريحا ورام الله وارسوف ويافا وبيروت وكثير من المدن الواحدة بعد الأخرى وكان يعامل سكانها بكل شرف وإنسانية. فلم يكن يؤذي النساء والأطفال والشيوخ وكان يعامل أسرى الحرب بكل عطف ورحمة ويطلق سراحهم فورا.

الاستيلاء على بيت المقدس (١١٨٧م)

وبدون أن يمهل العدو فترة راحة ولى الكردي العظيم وجهه تجاه بيت المقدس. وكانت هذه المدينة مقدسة لدى اليهود والنصارى والمسلمين جميعاً وهي بالنسبة للمسلمين تعتبر القبلة الأولى. وثالث المدن المقدسة بعد مكة والمدينة.

إن الإسلام هو "المرحلة الثالثة". أي التطور النهائي للدين الذي بشر به سيدنا إبراهيم عليه السلام. ويعترف الإسلام بجميع الديانات السابقة ويحترمها. ويضيف الإسلام إلى "النظام الأخلاقي" الذي بشرت به المسيحية "النظام الجتماعي" أحدث النظريات وآخرها. وبذلك يعتبر الإسلام الفصل الأخير في الكتاب الذي بدأه النبي إبراهيم عليه السلام. وأضاف إليه كل من موسى وعيسى فصله الخاص وأخيراً قدم الرسول محمد عليه الصلاة والسلام الفصل الأخير ووضع خاتما في النهاية.

كان القرن الثاني عشر في أوروبا عصر التعصب الديني. وكان الاستيلاء على الأماكن المقدسة يعتبر عملاً واجباً على أوروبا المسيحية إلى جانب كونه فائدة تجارية. وكانت طبقة التجار قد بدأت تظهر "تدريجيا" في شكل طبقة متوسطة على

أنقاض المجتمع الاقطاعي المتداعي. واستغلت طبقة التجار هذا التعصب الديني بين أفراد طبقة الفقراء والفلاحين الجهلة الأميين كما أثارت حماس أفراد الطبقة العالية. ولكن الهدف الرئيسي من وراء الحملات الصليبية كان فتح الطريق أمام الأساطيل التجارية. وكان استيلاء الصليبيين على كل مدينة مقدسة يضع قواعد راسخة لمشاريعهم التجارية ويحقق أهدافهم التوسيعية. لذلك نرى الصليبيين لم يكونوا يهتمون بالنواحي الأخلاقية قدر اهتمامهم بالمتطلبات العسكرية.

وقد ظل بيت المقدس خلال فترة حكم المسلمين مدينة مفتوحة لليهود والنصارى والمسلمين جميعاً إذ أن قداسة أورشليم تحتم على المسلمين أن يحترموا شعور أهل الكتاب جميعاً وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام هم أنبياء اليهود والنصارى وأنبياء المسلمين أيضاً. ولكن للأسف الشديد ما إن وقعت أورشليم في أيدي الصليبيين حتى تحولت إلى قلعة حربية ومركز تجاري، وأغلقت الأماكن المقدسة في وجه المسلمين. بل طرد المسلمون كلية من المدينة المقدسة، وبذلك قضى الصليبيون على قدسية بيت المقدس بتحويلها إلى مجرد قاعدة عسكرية.

وقبل أن يشن صلاح الدين أي هجوم على بيت المقدس بعث بالرسالة التالية إلى قائدها سإنّني أعلم كما تعلم أنت أن القدس مدينة مقدسة وإنني لا أريد أن أدنسها بسفك الدماء أجلُ عن حصونك وسوف أهبك جزءاً من خزائني وأي مساحة من الأرض لتزرعها" ورفض قائد بيت المقدس عرض صلاح الدين وأهان حامل رسالته. فحاصر السلطان المدينة وبعد شهر واحد توسل إليه الفرنجة المحاصرون بالاستسلام فمنحهم الحرية.

وكانت شروط التسليم متساهلة للغاية حتى اننا لنسلم بأن الذي وضعها لم يكن قائداً عسكرياً –بل قديساً رحيماً– وقد سرد إبن الأثير تفاصيل الحصار واستسلام الجيش الصليبي بإسهاب "وأعطى صلاح الدين أيوبي الأمان التام للنصارى اليونانيين والسوريين وسمح لهم بالإقامة في البلاد متمتعين بحقوقهم المدنية والمساواة مع قاهريهم. وحتى الغزاة الأجانب الذين قدموا من أوروبا وإيطاليا سمح لهم بالإقامة في فلسطين كما شاءوا. ويستطرد إبن الأثير قائلاً وعندما استأذنت سبيلا ملكة بيت المقدس الملك الكردي العظيم في السفر بصحبة خدمها وحشمها احترم حزنها ورأف بحالها وحادثها بكل رقة ورحمة، وتبعها عدد من النساء الباكيات

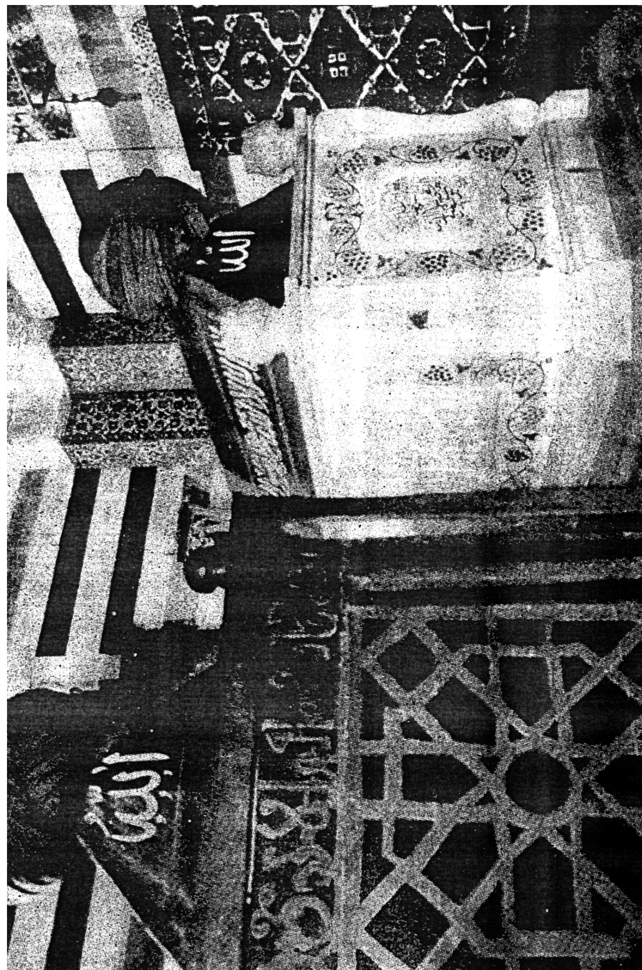
يحملن أطفالهن وخاطب عدد منهن السلطان قائلات "إنك ترانا سائرات على أقدامنا نحن زوجات وأمهات وبنات المحاربين الذين أسرتهم. ونحن نغادر هذه البلاد إلى الأبد ولا عائل لنا سواهم. ففقداننا لهم يعني فقدنا آخر أمل لنا فإذا أعطيتنا إياهم فسوف يزيلون عنا بؤسنا ويعولوننا في هذه الأرض". وتأثر صلاح الدين بالغ الأثر بهذا وأعاد فوراً إلى كل أم ولدها وإلى كل زوجة زوجها ووعد بأن يعامل كل من كان في الأسر بكل رحمة.

لم يسجل التاريخ مثل هذه الشهامة والنخوة وهذه المعاملة الكريمة من جانب الغالب تجاه المغلوب. أما الصليبيون فبعد أن أطلق سراحهم من بيت المقدس وتعهدهم بأن يعودوا إلى أوروبا فقد خانوا العهد وبدأوا يتجسسون في صور. وفي نفس الوقت وصلت تعزيزات جديدة من أوروبا وقررت مدينة صور بقيادة كونراد مركيز موت فيرات الصمود في وجه صلاح الدين. وقبل أن يدمر القائد العظيم قلعة صور قرر القضاء على سيطرة الفرنجة على طول الساحل رامياً بذلك إلى قطع خطوط تموينهم. وبذلك استولى على جبل سيخون وبكاسي وبازيار ودير برسان وغيرها من المراكز الحيوية بالنسبة للمقاومة الصليبية.

وتسببت انتصارات صلاح الدين الساحقة على الصليبيين في إثارة موجة جديدة من السخط في أوروبا. وفي عيد الميلاد أصدر البابا نداءاً لتكوين حلف بين فريدريك الأول ملك النمسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وفيليب ملك فرنسا وحثهم بأن يحموا الصليب. وفي أغسطس ١١٨٩ حاصر الصليبييون مدينة عكا، فهرع صلاح الدين لنجدتها.

وفي ١١٩١ ظهر ريتشارد قلب الأسد وفيليب ملك فرنسا بقوات جديدة. وثبت الصليبييون هذه المرة بالميناء واستفادوا من الطريق البحرية. وفي ١٢ يوليو ١١٩٢ استسلمت الحامية المحاصرة في عكا. وعندما رفض صلاح الدين دفع المبلغ الكبير الذي طلبه المحاصرون تعويضا لهم وقعت مذابح وحشية ضد الأسرى في كلا الجانبين. وهذا تناقض يؤسف له لما اشتهر به صلاح الدين من السماحة والمعاملة الطيبة للصليبيين في المواقع السابقة.

لما تبين أن الحرب لن تقرر مصير الأمور بدأ الملك العادل أخو صلاح الدين مفاوضات السلام مع الملك ريتشارد الذي كان هو أيضاً يفضل وقف القتال ليعود إلى


الله
الله

إنجلترا حتى لا يفقد عرشه. وبذلك عقد الصلح في ٢ نوفمبر ١١٩٢ على أن يحتفظ صلاح الدين بجميع فتوحاته حتى اللد والرملة وعقلان وأن تترك بيت المقدس تحت حكم المسلمين مع سماحهم للمسيحيين بالحج والزيارة إليها بشرط ألا يكونوا مسلحين.

ولم ينعم صلاح الدين بهذا السلام إلا قليلاً فبعد أن انتقل من القدس إلى دمشق في نوفمبر ١١٩٢ لم يلبث أن مات في فبراير ١١٩٣ بالغاً من العمر ٥٥ عاما. وقد قسم السلطان صلاح الدين امبراطوريته الواسعة قبل وفاته فأعطى ابنه الأكبر الملك الأفضل دمشق وسوريا الجنوبية وأعطى الابن الأوسط الملك العزيز مصر والأصغر الملك الظاهر حلب وسوريا الشمالية – وأعطى صلاح الدين بلاد مابين النهرين (التي تضم موطن الأكراد) لأخيه الملك العادل.

ولسوء الحظ أثبت أبناء أعظم بطل كردي عدم اهتمامهم وعدم استحقاقهم لعظمة الاسم الذي خلفه لهم أبوهم فسرعان ما دب الشقاق فيما بينهم مما ساعد على ضعف شأنهم وسقوط دولتهم تدريجيا.

أما في أوروبا فقد خمدت جذوة الحماس للاستيلاء على الأراضي المقدسة. وبزوال هذا الخطر الخارجي استأنف ملوك المسلمين وأمراؤهم نزاعهم واختلافهم فيما بينهم. وعلى الرغم من الفوضى التي حدثت إثر وفاة صلاح الدين يعتبر عصر الدولة الأيوبية عصراً ذهبياً في تاريخ الشرق الأوسط. كان النظام الإداري قائما على أسس سليمة. فكانت الشريعة الإسلامية هي قوانين المسلمين. ووجه الملوك اهتماما خاصاً بالزراعة. وصيانة قنوات الري القائمة. بل حفروا عدة قنوات جديدة في شمالي مابين النهرين وسوريا ومصر، وراجت التجارة مما جلب الرخاء والسعادة لأبناء الشعب.

ولم تسبب الحروب التي دارت مع الصليبيين في إثارة أي عداء مع المسيحيين العرب. بل كان المسيحيون في الواقع يعتبرون العمود الفقري لطبقة التجار التي احتفظت بالصلات التجارية مع أوروبا المسيحية. وكانت العلاقات مع الفرسان الصليبيين. خاصة في فترات السلم التي كانت تعقب المعارك قد ساعدت على التبادل الثقافي الذي كان نواة القوانين الفروسية وعرفها وقوانين الحرب الغير مكتوبة بين أي شعبين متحضرين. بل إن كثيراً من ثقافتنا الحاضرة خاصة قوانين الحرب (القانون الغير مكتوب الذي هو نواة معاهدة جنيف حول الحروب وقوانين الصليب الأحمر وغيرها) قد وضعت بذورها خلال العهد الأيوبي في الشرق الأوسط.

ولسوء الحظ أعقب ذلك العصر الزاهر من تاريخ الشرق الأوسط عامة وتاريخ الأكراد خاصة، أسوأ عصر مظلم من تاريخ العالم. وأشير هنا إلى العصر الذي اكتسحت فيه جحافل جنكيز خان البربرية أواسط آسيا ودمرت إلى الأبد ما خلفته قرون من الحضارة الزاهرة وتراث أمة فاقت غيرها من الأمم تقدماً وازدهارا.

الغزو المنغولي

شهد التاريخ مرة أخرى غارات قادمة من الشمال الشرقي تركت أقبح الآثار على وجه الكرة الأرضية. ولنرجع إلى الوراء إلى سنة ١١٦٤ ميلادية عندما رزق ياسو كاي زعيم قبيلة ياكا المنغول بطفل وسط صحراء جوبي الجرداء وسمي الطفل تموجين. الذي عرفه العالم فيما بعد باسم جنكيز خان.

كانت الحرفة الرئيسية للمنغول هي القنص وشن الغارات. وحدث ان أغار ياسو كاي على إحدى القبائل المنغولية المجاورة واختطف خولوين ابنة زعيم تلك القبيلة. وكانت خولوين فاتنة عصرها إذ امتازت بطول قامتها وبروز صدرها وجمال جسدها وسحر عينيها. ويقال أن خولوين هي التي دبرت خطة هربها مع حبيبها ياسو كاي. وهكذا كتب لفاتنة المغول أن تكون أماً لتموجين –لعنة الإنسانية– الذي عرف فيما بعد باسم جنكيز خان.

لقد قررت أن أخصص في كتابي هذا فصلاً كاملاً لغارات هذا المنغولي الجبار فإن تخصيص دراسة مفصلة لهذه ″اللعنة الإنسانية″ في هذا الكتاب لن يكون خارجا عن الموضوع إذ أن التاريخ قد أثبت أن الأكراد كانوا الأمة الوحيدة التي أرهبت المنغول. قاومتهم وهزمتهم بنفس أسلوبهم فقد كانت بلاد الأكراد هي البلاد الوحيدة التي لم يجرؤ المنغول على تخريبها بأعمالهم الوحشية مثلما فعلوا بالبلاد الأخرى.

وقد تكون هناك عدة أسباب لخوف المنغول الغير طبيعي من الأمة الكردية. ولكن أهم هذه الأسباب هو التشابه الكبير بين الأكراد والمنغول في عاداتهم وفي معيشتهم القبائلية البدوية. فبلاد الأكراد مثل بلاد المنغول وعرة مجدبة وقدرة الكردي العظيمة على تحمل المشاق هي مثل قدرة المنغولي. وينطبق على ذلك المثل القائل ″لا يفل الحديد إلا الحديد″. والسبب الثاني هو أن المنغول بقيادة هلاكو خان –حفيد جنكيز خان– قد منيوا بهزيمة نكراء في ٣ سبتمبر ١٢٦٠ في معركة عين جالوت بفلسطين بفضل الشجاعة التي أبلاها الفرسان المجندين في جيش السلطان بيبرس أبان عصر المماليك.

وتدل كتب التاريخ المعاصر على أن المحارب الكردي قد صار مصدر خوف ورعب للمنغول الشرسين، مع العلم بأنه من الصعب جداً إرهاب المنغولي وتخويفه، فالمنغولي عندما يريد أكل فريسته من الحيوان لا يذبحها بقطع عنقها بل يقيد قوئمها أولا ثم يتناول سيفه ويمرقه في صدر الفريسة الحية ثم ينزع قلبها ويمتص الدم الحار منه كما نمتص نحن عصير برتقالة فجة ويدار القلب الدامي على الحاضرين إلى أن يتم امتصاص كل ما يحتويه من دم. وفي هذه الأثناء يكون الحيوان قد مات فتبدأ عملية طهيه. مثل هذا المنغولي المتوحش لقي مقاومة شديدة من الفارس الكردي بل مني بهزيمة منكرة على يديه ولأول مرة في التاريخ اضطرت جحافل الجنس المتوحش أن تولي الأدبار فراراً من عدو يعادلها إن لم يفقها قوة.

شباب تموجين

فقد تموجين أباه وعمره أربعة عشر عاما وواجه مهمة المحافظة على سلطته في قبيلة الياكا التي سادها الاضطراب والفوضى إلى جانب إنقاذ حياته هو نفسه من بين عدد من الأخوة الغير أشقاء الذين سعوا إلى اغتياله ليستولوا بذلك على السلطة بين أفراد قبيلة الياكا الشديدة البأس. وقد حدث أن اضطر تموجين وأمه وأشقاؤه وشقيقاته إلى الفرار بجلدهم، وعاشوا في البراري عدة شهور هرباً من أعدائه. وكان تموجين عندئذ لم يزل فتى يافعا ولم ينقذه إلا شجاعته النادرة وإرادته القوية وحبه للبقاء وذكاؤه الخارق. واضطر تموجين أثناء مطاردة أعدائه له إلى التخلى عن زوجته الجميلة التي وقعت في أسر قبيلة ترجوقي المنغولية وهي من ألد اعداء قبيلة الياكا.

وقد وقعت حادثة غريبة لتموجين الصغير فعندما قبض عليه الأعداء قيدوا يديه في شقي لوح خشبي ووضعوا عنقه داخل فتحة في شقي اللوح وطبق الشقان وأحكم غلقهما بقفل. ووضعوه في خيمة عليها حارس مسلح، وفي الليل ضرب تموجين الحارس على رأسه باللوح الخشبي المقيد فيه وفر من معسكر أعدائه.

وظل تموجين ثلاثة أيام يختبئ نهاراً ويسير ليلاً والتقى به منغولي طيب القلب ينتمي إلى قبيلة أخرى ففك قيده وأطعمه لعدة أيام إلى أن استعاد صحته ثم أعطاه فرساً سريعاً وقوساً وجعبة مملوءة سهاما.

واستطاع تموجين أن يصل إلى مخيم قبيلته بعد رحلة عبر الصحارى الجرداء والجبال الوعرة المسالك.

ومن المحتمل أن يكون تموجين خلال تلك الفترة من عمره قد اقتنع بأن العامل الأساسي لحياة الإنسان هو المحافظة على النفس وإن قتل إنسان آخر دفاعاً عن النفس ماهو إلا أمر طبيعي تماماً مثل ذبح حيوان لأكل لحمه. وكان تموجين منذ تلك المرحلة الأولى من حياته يؤمن بعدم وجود أي فرق بين حياة الإنسان وحياة الحيوان فقتل النفس البشرية ليس إلا عملا عاديا له ما يبرره مادام يبلغ الشخص به أهدافه.

تدعيم نفوذه بالداخل

وبعد أن تمرس تموجين في الحروب منذ صغره عزم على أن يوحد قبائل كاريت ومركيت ونايمان يوجور عن طريق الحرب وقد تم له ذلك خلال سنتين فقط. وبدأ تموجين الشاب غزواته وفتوحاته في امبراطورية الصين الواسعة بعد أن عقد محالفة مع طغرل خان. وبدأت خطته هكذا – زوده التجار بأخبار مفصلة عن الحياة في بكين. ثم بعث الخان قوة استطلاعية لاختبار قوة الصينيين، فعلم أنهم رغم تقدمهم الكبير وحضارتهم العريقة كانوا يعيشون حياة ناعمة وكانت تنقصهم الشجاعة والمقدرة على مقاومة عدو قوي الشكيمة وفي عام ١٢١٠ دهمت جيوش الخان العظيم الامبراطورية الصينية الواسعة الأطراف.

هاجمت جحافل المنغول امبراطورية الصين المقدسة من ثلاث جهات. ففي الجنوب توغل ثلاثة من أبناء جنكيز خان عبر إقليم شانسي وفي الشمال عبر جوشي أصغر أبناء جنكيز خان جبال خينجون وانضم إلى قوات لياونوئعه بينما وصل جنكيز خان بقلب جيوشه إلى شواطئ المحيط الكبير إلى ما وراء يان كنج وقد عملت تلك الجيوش الثلاثة مستقلة عن بعضها إلا أنها اتبعت جميعا الخطة المرسومة التي وضعها جنكيز خان.

وكان المنغول كلما تقدموا حاصروا كل ما قابلهم من المدن المحصنة، وبعد استيلائهم على المدينة كانوا يقبضون أولاً على كبار رجالها ويقتلونهم، ثم يأسرون كل شخص صحيح البنية، ويسوقون هؤلاء الأسرى أمامهم عند شنهم أول هجوم على المدينة التالية. وهنا طبق الخان العظيم مبادئ الحرب الشاملة ومبادئ حرب الأعصاب ضد أعدائه. ومعنى حرب الأعصاب هو أن يقضي الخان العظيم على الروح المعنوية لأعدائه وقدرتهم على المقاومة قبل اشتباك الجيشين فعلا.

وفي سنة ١٢١٤ عقد الصلح وقدم امبراطور الصين للخان خمسمائة شاب ومثلهم

من الجواري الجميلات مع قطيع من الخيول الأصيلة وأحمال من الحرير الطبيعي والذهب لجنكيز خان نفسه. كما قدمت إليه إحدى نساء الأسرة المالكة ثاي ثاي صيني. وإلى جانب ذلك تعهد البلاط الامبراطوري ببكين ألاّ يتدخل في شؤون الولايات الواقعة في أطراف الامبراطورية الصينية وبذلك وضعت تلك الولايات تحت نفوذ المنغول. وقد استفاد جنكيز خان من هذه الانتصارات ثلاثة دروس:

١- أولها وأعظمها أنه وثق من نفسه ثقة تامة بقهره عرش الصين المقدس.

٢- وثانيها عند مهاجمة دولة مترامية الأطراف يستحسن مهاجمتها من عدة جبهات بموجب خطة عامة منسقة. فإن هذا يضطر العدو إلى توزيع قوته ويفرقها في عدة جيوب متباعدة. كما يجعل العدو في حيرة من أمره: أي فيلق من القوات المهاجمة أهم من الآخرين من حيث المقاومة؟

٣- والدرس الثالث الذي استفاد منه جنكيز خان والعالم أجمع هو المميزات الحربية للحرب الشاملة. فالحرب هي "لعبة شاملة" - ولعبة إلى النهاية لذلك فإن تطبيق مبادئ الحرب الشاملة في البداية ينتج عنه فائدتان عظيمتان: فباستخدام الوسائل الرادعة الشاملة يتم النصر في البداية. والانتصارات الأولى في ميادين المعارك دائما ما ترفع الروح المعنوية للدولة المنتصرة وتحطم معنوية العدو. وإن التخريب التام يحدث شعوراً بالخوف والرعب بين قوات العدو وبذلك يعتبر عاملاً فعالا للقضاء على قوة الدولة المقاومة بصورة عامة وعلى مقاومة قوات العدو بصورة خاصة.

أما المساوئ فهي أنه بالرغم من تحقيق هدف الحرب باستخدام الوسائل التخريبية الشاملة فإنّ الهدف السامي ينعدم ويفتقد تماماً. والتاريخ لا يوافق على مثل هذه الوسائل. وسنرى في الحملة التالية كيف يستفيد جنكيز خان من هذه الدروس فائدة عظيمة.

بعد أن فتح جنكيز خان بكين أرسل ولده جوشي سنة ١٢١٥ نحو الغرب لمحاربة أهل ماركيت الذين تحالفوا مع قبيلة النايمان وسللوا من بلادهم الواقعة على شاطئ بحيرة بايكال إلى داخل سهول كيرغيز، وبينما كان جوشي يشن حملته اشتبك مع جيش مسلم تابع لملك خوارزم بالقرب من بخارى في أواسط آسيا. ومنذ ذلك الحين بدأت العلاقات الشبه دبلوماسية بين الخان العظيم وملك خوارزم المسلم.

إتجاه الخان نحو الغرب

بعد أن درس الخان الكبير كل نقاط الضعف والقوة في الملك المسلم دراسة دقيقة قرر التقدم بجيوشه نحوه. وفي سنة ١٢١٨ بعث الخان سفراء إلى خوارزم شاه يحملون رسالة يخاطبه فيها بلهجة الملك إلى الوالي. فاغتاظ خوارزم شاه وأهان سفراء الخان العظيم وعمل على اغتيالهم قبل أن يغادروا الحدود. فأتيحت بذلك لجنكيز خان الفرصة التي كان ينتظرها لشن الهجوم على آسيا الوسطى وبسط سلطانه عليها. وفي هذه المرة شن الخان الهجوم من أربع جبهات ولكنه كان ينظم التحركات للجيوش الأربعة جميعاً في نفس الوقت. وكان هو نفسه يقود خيرة جنوده. وترك جنكيز خان أولاده يحاصرون القلاع والحصون على الحدود وتوغل هو إلى داخل البلاد حتى وصل إلى بخارى واستولى عليها بعد حصار قصير ودمرها تدميراً حتى صارت خراباً. واستطاع خوارزم شاه الفرار ومعه حفنة قليلة من خيرة جنوده وتقهقر إلى الجنوب نحو بلخ ثم نيشابور على الحدود الشرقية من إيران عن طريق سهول هيرات.

هزيمة علاءالدين ملك خوارزم

وتعقب جنكيز خان الشاه كظله المنكود. وفي سنة ١٢٢١ استولى الطاغية الجبار على نيشابور حيث قامت جيوشه الباغية بعمليات ذبح واسعة النطاق ضد الشيوخ والنساء والأطفال. وكانت نيشابور مدينة كبيرة مزدحمة بالسكان وعاصمة للسلجوقيين في فارس. وقد وصفها إبن خلدون بأنها كانت مركزاً حيوياً لشبكة الطرق من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق والغرب... كانت تلك المدينة الجميلة جنة الله في أرضه وكانت بيوتها منتشرة على منحدرات الجبال التي تحيط الآن ببلدة نيشابور المهجورة حاليا.

وقد ذكر المؤرخون المعاصرون كيف أباد المنغول ١٧٤٧٠٠٠ من سكان تلك المدينة شيوخاً ونساء وأطفالاً. كما ذبحوا ١٦٠٠٠٠٠ شخص في مدينة هيرات وضواحيها ودمروها حتى سارت قاعاً صفصفاً. أما مدينة نيشابور فقد هدمت بيوتها عن آخرها وحرثت الأرض التي كانت عليها وزرعت بالشعير.

ومما تجدر الاشارة إليه إن المنغول لم يستولوا على أي مدينة في آسيا الوسطى بطرق

القتال النظيفة النزيهة. فقد سقطت بخارى ومرو وهيرات ونيشابور واحدة بعد الأخرى بطرق الخداع والمؤامرات وباستخدام كل الوسائل المرعبة والارهابية ضد حكام تلك المدن المسلمين فقد كانوا في جميع تلك الحالات يعطون الأمان للحكام المسلمين والأفراد ويعهدون بسلامة أرواحهم وممتلكاتهم إذا استسلموا. ولكن ما إن فتحت أبواب المدن حتى قام جنود جنكيز خان بذبح الرجال والنساء والأطفال دون رحمة.

وعند هذا الحد أوقف جنكيز خان زحفه وتوجه هو بنفسه نحو الشرق لتعقب جلال الدين أمير خوارزم. وبعث بجيش قوي بقيادة ″تولي″ ابنه الأصغر لتعقب من بقى من الجيش التركماني الذين ولوا الأدبار عبر إيران نحو بلاد ما بين النهرين. وكان على ″تولي″ في تعقبه للجيش التركماني أن يعبر صحراء لوط في شرقي إيران حتى وصل إلى أبواب مدينة همدان. وكانت التعليمات التي صدرت إلى تولي تأمره بتمزيق شمل التركمان أو إبادتهم.

ونجح تولي حتى تلك اللحظة في اختراق بلاد المسلمين مثل اختراق السكين الحادة قطعة من الزبدة. ولم تقف في طريق المنغولي الشاب القوي العزيمة أي عقبة لا حرارة الشمس المحرقة ولا صحراء لوط المجدبة المترامية الأطراف الوعرة المسالك. ولكن هناك عند أبواب همدان تعرض تولي لعقبة تفوق كل العقبات التي تعرض لها.

الأكراد يغيرون مجرى الحرب

كانت سهول وجبال همدان موطناً لقبائل الأكراد الذين يعتبرون أصلح من يواجه المنغول القساة لما امتازوا به من الشجاعة والإقدام والقدرة على تحمل المشتاق. واستنادا إلى كتاب الشرفنامه والقصص الشعبية المحلية ان المنغول عسكروا على بعد أربعة أميال من مدينة همدان. وما كاد تولي يستقر بجنوده حتى تعرض لهجمات سريعة متلاحقة من جانب الأكراد الغورانيين الشديدي البأس. وكالعادة قرر المنغول إبادة الأكراد الغورانيين فبعثوا في أثرهم جحافلهم القوية. وهنا أثبت الأكراد مرة أخرى أنهم خير صنو وأحسن قرين لجنود جنكيز خان الذين لا يقهرون.

وكان المنغول (مثل الصينيين اليوم) قد حذقوا في التوغل في صفوف العدو واستدراجه. أما الأكراد فلأول مرة في التاريخ بدلاً من أن يستدرجهم المنغول استدرجوهم إلى أرض المعركة التي اختاروها بأنفسهم. ففي المنطقة الجبلية الواقعة بالقرب من كرمانشاه أبيدت قوات تولي عن آخرها.

استاء جنكيز خان وتأثر تأثراً عميقاً لهذه الهزيمة المنكرة التي حلّت بجيشه العظيم فاستدعى تولي فوراً وعاد مسرعاً إلى وطنه لإخماد فتنة قامت بين المنغول في صحراء جوبي. وبهذا أنقذ الأكراد الغورانيون الشجعان بغداد من دمار محقق. فلو فقدت بغداد آنذاك فمن المؤكد أن الغزو المنغولي المدمر كان سيصل إلى شمال أفريقيا لعدم وجود أي دولة قوية حينذاك يمكنها الصمود فيما وراء العراق. ولنترك تاريخ جنكيز خان هنا ولنتخطى فترة أربعين سنة كان العالم يلعق خلالها الجروح التي أصابه بها المنغول المتوحشون.

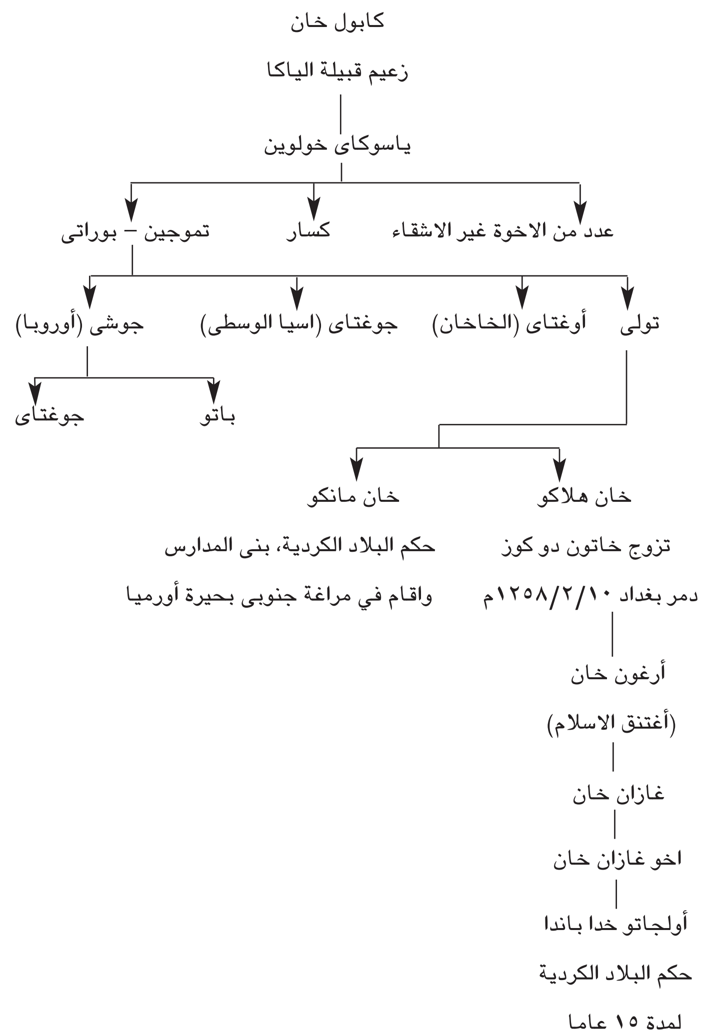
الإنحلال

وفي خلال فترة الفوضى والاضطراب هذه نالت القبائل الكردية مزيداً من الاستقلال الذاتي وتخلص شيوخ القبائل تدريجيا من سيطرة خليفة بغداد السياسة والإدارية. وفي سنة ١٢٤٢ توفي الخليفة المستنير وخلفه ابنه أبو أحمد عبدلله – المستنصر بالله الذي كان ضعيفاً متردداً منغمساً في الملذات.

ونشبت الخلافات بين المذاهب الإسلامية التي كانت أربعاً فقط آنئذ (السنيين والشيعة والأحناف والحنابلة ونحمد الله على أنها كانت أربعة فقط لا أكثر) وقد أدى هذا الانقسام إلى الضعف والانحلال بين سكان بغداد.

وبينما كانت دار الخلافة في انحطاط مستمر كانت ولاياتها التي تدفع لها الخراج تزداد قوة واستقلالاً وأصبح البشوات والأغوات الأكراد الذين كانوا يدينون لها بالولاء مستقلين استقلالاً تاماً عن حكومة بغداد. واستحق الأكراد الغورانيون في كرمانشاه والأكراد البرزانيون في الشمال أن يفخروا بالدور الذي قاموا به في هزيمة قوات جنكيز خان فحق لهم أن يستقلوا عن أي سلطة مركزية.

وحصل قصاصو الأكراد ومنشدو أغانيهم على مادة غنية لقصصهم وأغانيهم المادحة لشجاعة فرسان الأكراد وبطولتهم. ومن هذه القصص قصة افدو آغا الزعيم الكردي الذي ثار عندما سمع بمعاملة المنغول الوحشية لخطيبته زكية ثم قتلهم إياها فشهر سيفه وأخذ يضرب به يميناً وشمالاً وسط صفوف المنغول. وبعد أن قتل منهم المئات وحده وصل إلى معسكر تولي ابن جنكيز خان حيث قتل فرسه بوابل من السهام والحراب. وقاتل افدو آغا مترجلاً حتى سقط صريعا على باب خيمة تولي. وتستطرد الأسطورة قائلة أن "تولي" نفسه شق صدر الكردي البطل بخنجر وأخرج قلبه الدامي.



كابول خان
زعيم قبيلة الياكا
ياسوكاى خولوين
عدد من الاخوة غير الاشقاء
كسار
تموجين – بوراتى
تولى
أوغتاى (الخاخان)
جوغتاى (اسيا الوسطى)
جوشى (أوروبا)
باتو
جوغتاى
خان هلاكو
تزوج خاتون دو كوز
دمر بغداد ١٢٥٨/٢/١٠م
خان مانكو
حكم البلاد الكردية، بنى المدارس
واقام في مراغة جنوبى بحيرة أورميا
أرغون خان
(أغتنق الاسلام)
غازان خان
اخو غازان خان
أولجاتو خدا باندا
حكم البلاد الكردية
لمدة ١٥ عاما

واستنادا لقصص الأكراد الشعبية أن قلب افدو آغا قد قدم تلك الليلة على مائدة الزعيم المنغولي.

وفي ذلك الوقت أصبحت القبائل الكردية مستقلة استقلالاً تاماً عن نفوذ بغداد السياسي ولو أن نفوذ خليفة بغداد الديني والروحي على الأغوات والزعماء الأكراد كان لم يزل قوياً. وهكذا صار المسلمون ضعفاء كأمة واحدة. وحتى بين العرب أنفسهم ظهرت النصرة القبائلية إلى جانب الانقسام الطائفي. وبدا أن كل ما أنجزه المسلمون خلال قرون طويلة من أمجاد لخلق أمة مسلمة من قبائل وأجناس متعددة قد صار كأنه لم يكن.

إذا قبلنا الاصطلاح القائل بأن الأمة هي مجموعة من الناس الذين يؤمنون بانتمائهم جميعاً بعضهم لبعض "فإننا نلغي بذلك فروق اللغة والحدود الإقليمية أو الجغرافية واختلاف الجنس أو اللون". ولقد سعى النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى التوحيد بين عدد من الشعوب المختلفة في مجموعة واحدة وسمها كما شئت دولة أو سمها باسمها الديني، الأمة المسلمة.

كان على الأمة المسلمة أن تعيش حياة معينة مختلفة تماماً عن الحياة التي كان الناس عليها في الزمن المعاصر. فكان على أفرادها أن يعيشوا حسب المبادئ "التي تضبط السلوك الشخصي" للفرد وكأمة حسب القوانين التي تضبط "السلوك الجماعي للمسلمين" تلك القوانين والمبادئ التي جاء بها القرآن الكريم وسنة الرسول (صلى الله عليه وسلم). وكان الهدف من هذا كله فضلاً عن الشعائر الدينية للمسلمين (الصلاة والصوم والحج وغيرها) واحداً ألا وهو إقامة أمة جديدة من بين شعوب متعددة يكون لها عادات أنظف وأحسن تعرف في العالم باسم أمة المسلمين. وهكذا يثبت التاريخ أن المسلمين أينما كانوا وفي أي زمن إذا انتكسوا أو ارتدوا إلى عاداتهم الجاهلية، أي بالانغماس في العصبية القبلية أصبحوا لا يستحقون أن يسموا مسلمين. أما القول بأن هؤلاء المسلمين بسلوكهم الغير إسلامي قد صاروا كافرين فهذا السؤال أتركه لرجل الدين كي يجيب عليه، أما أنا طالب التاريخ فأعتبر مثل هؤلاء المسلمين قد جردوا أنفسهم من جميع صفات المسلم وبذلك يسددون ضربة قاضية في وجه قضية الوحدة بين الشعوب. تلك القضية التي جعلها رسولنا الكريم هدفه الأول. على كل فلنر نتائج هذا التناحر وهذه العصببة والشعوبية التي كان عليها المسلمون إبان غزوات هلاكو حفيد جنكيز خان.

هلاكو خان

كان هدف هلاكو منذ البداية أن ينشئ لنفسه امبراطورية جديدة في الغرب، وبما أن فارس قد وقعت فريسة بين براثن المنغول وأصبحت الفتنة الداخلية والشقاق في الدولة العباسية تغري أي شخص بالتدخل فإن المنغول بدأوا يبعثون بحملات استطلاع سياسية وعسكرية في ممتلكات الدولة العباسية. فبعثوا أولا جيشاً قويا كطليعة اتخذ من تبريز مقراً له. ثم تقدم جنوباً وغرباً حول بحيرة أوروميا ماراً ببلدة مراغة حتى وصل إلى مهاباد وهي مدينة على أطراف بلاد الأكراد. وقرر هلاكو خان نقل مقره الرئيسي إلى مهاباد ومن هناك قاد بنفسه قلب جيوشه. فهاجم بلاد الأكراد الجبلية عبر طريق القوافل القديم (المعروف حاليا بطريق هاملتون).

ودارت أولى المعارك الحاسمة بالقرب من خانه وهي بلدة صغيرة يقع فيها الآن مركز الجوازات والجمرك على الحدود الإيرانية– العراقية. واستبسل الأكراد في القتال لمدة يومين إلى أن فاجأوا المنغول باستخدام نفس الأسلوب المعهود عن جنكيز خان – أي مناورة استدراج العدو إلى الأرض التي يختارونها بأنفسهم لإبادته. ولقد انتصر المنغول بقيادة جنكيز خان في كل معاركهم تقريباً لتطبيقهم هذا التكتيك وكان هلاكو خان كذلك يتقن تطبيق خطط استدراج العدو والتوغل في صفوفه ولكنه وقع هو نفسه فريسة لهذه الخطة التي ابتكرها جده العظيم.

الأكراد يصدون الهجوم

والجدير بالذكر أن الخطط الحربية هي خطط عالمية ورب خطة تفيد واضعها ولكنها لا تقل فائدة بالنسبة للعدو لو أراد تطبيقها. وغالباً ما يقع قائد محنك فريسة لنفس الخطة التي كان قد رسمها ضد عدوه. وهذا ما حدث بالفعل لهلاكو خان عندما ترك الأكراد أرض المعركة وأخذوا في التراجع نحو جبالهم ووديانهم وقرر هلاكو مطاردتهم مستهدفا إبادتهم.

وكانت أربيل بقلعتها المنيعة على بعد أربعين ميلاً فقط من خانه. وهناك دارت معركة حامية الوطيس فقد برز الأكراد من معاقلهم واشتبكوا مع قوات هلاكو في معركة اختاروا هم أرضها بأنفسهم وفي تلك المعركة وحدها قتل الأكراد الأبطال

خمسة آلاف منغولي مع قائدهم نايمان كيت بوجا وقد اقنع مقتل نايمان كيت بوجا هلاكو خان بعدم جدوى التقدم خطوة أخرى وبخطورة لمطاردة الأكراد فقرر التراجع إلى قاعدته.

وبعد أن تراجع هلاكو إلى مقره في مهاباد بدأ ينظم صفوفه وقدم العروض على الأمير الطورسي الإيراني الشيعي. وهكذا بمحاباة الطوسي والإغضاء عنه تجنب هلاكو خان المرور بجبال الأكراد ودخل العراق عن طريق الجبال الواطئة على بعد ٢٥ ميلاً شمالي خانقين. وكان هدف هلاكو هذه المرة هو تدمير بغداد. ولكن كي يضمن سلامة ميمنته أرسل جيشاً بقيادة اريكا نويان لإحتلال أربيل القلعة الكردية الحصينة. وشن الهجوم هذه المرة من الجنوب إلى الشمال وكان الهدف الأول مدينة السليمانية الكردية الشهيرة.

سقوط أربيل وتخريب بغداد (١٢٥٨م)

بعد ان دمر جيش هلاكو مدينة السليمانية وجعلها رماداً تقدم نحو أربيل من جهتين وحاصرها. وكانت مدينة أربيل وقلعتها في موقع ممتاز ومن الصعب فتحها حتى ولو ضيق عليها الحصار.

وحاول المنغول عدة مرات شن هجوم أمامي بقذف القلعة بكرات النار واستخدام المنجنيق ولكن الأكراد في كل مرة كانوا يصدونهم بشن هجوم مضاد.

وكان الفضل في صمود قلعة أربيل أمام المنغول يرجع إلى قائدها المغوار صالح الأربيلي. وقد كتب اسم هذا القائد العظيم بأحرف من ذهب في الأدب الكردي المعاصر وكان صالح الأربيلي يقود الهجمات الخاطفة على المنغول بشجاعة نادرة.

وفي إحدى الليالي قام بهجوم على المنغول المحاصرين وذبح هو ومن معه كل من وقع في أيديهم من المنغول كما أحرقوا آلات الحصار وعادوا سريعاً إلى القلعة واضطر أريكا نويان يائساً خائباً أمام هذا الفشل الذريع إلى فك الحصار والتراجع إلى الجبال والوديان القريبة حيث اختبأ مع قواته إلى أن حان فصل الصيف وخرج الأكراد كعادتهم السنوية من قلعتهم إلى المراعي.

وفي هذه المرة وقع الأكراد لسوء الحظ ضحية مكر المنغول وخداعهم، فقد كان العدو مختبئا ولما حانت الفرصة انقض بغتة على الأكراد الذين لم يكونوا متيقظين. واستولى

المنغول على قلعة أربيل وأحرقوها وجعلوها رماداً.

وفي نفس الوقت كان هلاكو خان الذي ضمن سلامة ميمنته من الأكراد قد بدأ فرض الحصار حول بغداد. واستطاع هلاكو بمكره ودهائه المعروفين عن الجنس المنغولي أن يحتال على الخليفة بإخراجه مع ولديه من مدينة بغداد وذبحهم. ثم نهب خزائن وأموال قصور الخلافة وهدم وأحرق مدارسها ودور علمها ومستشفياتها بحثا عن الذهب.

ومع أن هلاكو خان لم يلجأ بعد إلى تخريب بغداد نهائيا إلا أن إحراق مكتباتها وذبح أعيانها وكبار علمائها وأطبائها اعتبر ضربة قاضية قصمت ظهر بغداد كمركز للثقافة الإسلامية وبذلك أطفأ حفيد جنكيز خان سنة ١٢٥٨ إلى الأبد خلافة بغداد. ونهب خزائنها وذبح شعراءها وفلاسفتها وأطباءها وخربها حتى صارت بين يوم وليلة بلدة حقيرة من أملاك الخان الطاغية بعد أن كانت درة الدولة الإسلامية العظمية.

وبعد تخريب بغداد اتجه هلاكو نحو سوريا حيث لقي مقاومة شديدة على أيدي فرسان الملايين. وبعد ان درأ هلاكو هجماتهم الحادة اتجه نحو الجنوب الغربي حيث دارت في الثالث من سبتمبر ١٢٦٠ معركة حاسمة بين المماليك وقوات هلاكو الذهبية في عين جالوط بالقرب من نابلس بفلسطين. وحلت الهزيمة الساحقة بالجيش المنغولي أما مهمة تعقب فلول المنغول ومطاردتها فقد أنيطت لفرسان الأكراد الذين قاموا بها بنجاح منقطع النظير.

وأخذت القبائل المقيمة على الحدود الشمالية الشرقية من العراق تعمل سيوفها في قوات هلاكو المتقهقرة وبهذا انتهت حقبة من التاريخ الإسلامي وصلت خلالها الامبراطورية الإسلامية إلى دور الانهيار التام حيث ذبح ملوكها وخلفاؤها وشتت شملهم وقتل علماؤها وأطباؤها وفلاسفتها. ومع ذلك فإن هذه الحقبة المظلمة من التاريخ الإسلامي شملت أيضاً فترة ذهبية في ركن من أركان الدولة الإسلامية، هذه الفترة الذهبية قدمتها القبائل الكردية في شمالي العراق بشجاعتها النادرة ووحدة أهدافها عندما قاومت الغزاة المنغول وألحقت بهم الهزيمات الساحقة.

جدول انسان الأسرة العثمانية

لسلاطين الأتراك

عثمان الأول ١٢٩٩

اون خان ١٣٣٦

مراد خان ١٣٥٩

بايزيد الأول ١٣٨٩– ١٤٠١

محمد الأول ١٤٠٣– ١٤١٣

مراد الثانى ١٤٦١

محمد الثانى ١٤٥١

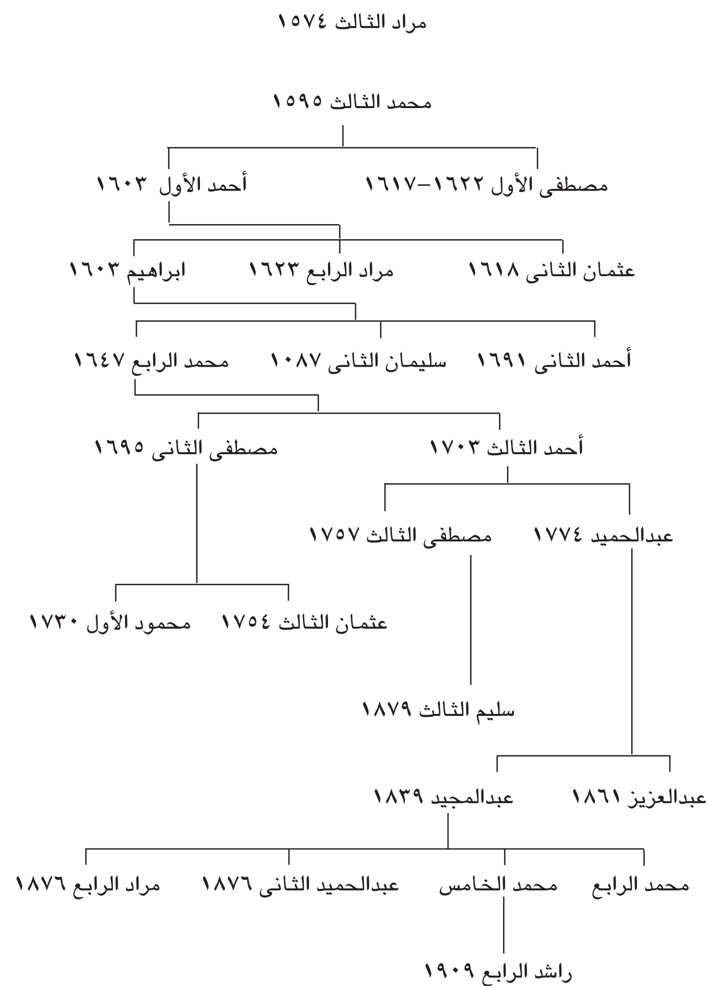
بايزيد الثانى ١٤٥١

سليم الأول ١٥١٢

سليمان الأول ١٥٢٠

سليم الثانى ١٥٦٦

البقية في الصفحة التالية


مراد الثالث ١٥٧٤
محمد الثالث ١٥٩٥
أحمد الأول ١٦٠٣
مصطفى الأول ١٦٢٢–١٦١٧
ابراهيم ١٦٠٣
مراد الرابع ١٦٢٣
عثمان الثانى ١٦١٨
محمد الرابع ١٦٤٧
سليمان الثانى ١٠٨٧
أحمد الثانى ١٦٩١
مصطفى الثانى ١٦٩٥
أحمد الثالث ١٧٠٣
مصطفى الثالث ١٧٥٧
عبدالحميد ١٧٧٤
محمود الأول ١٧٣٠
عثمان الثالث ١٧٥٤
سليم الثالث ١٨٧٩
عبدالمجيد ١٨٣٩
عبدالعزيز ١٨٦١
مراد الرابع ١٨٧٦
عبدالحميد الثانى ١٨٧٦
محمد الخامس
محمد الرابع
راشد الرابع ١٩٠٩

الفصل الخامس

الفرس والأتراك

تيمور لنك (التتار)

ما كاد يخمد النار الذي أثاره هلاكو خان بحروبه حتى ظهر المغولي الثالث على حدود بلاد الأكراد وبعد أن أطاح تيمور لنك (الأعرج) بأمراء خراسان وبلاد ما وراء النهر أخذ ينشئ امبراطوريته في وسط آسيا متخذاً من سمرقند عاصمة له.

وكان الأكراد في ذلك الوقت لا يدينون بالولاء لأي سلطة مركزية. وكان أقرب جيرانهم وأقواهم السلطان بايزيد التركي الذي لم تكن القبائل الكردية في أزربيجان تدين له بالطاعة إلا اسما فقط. أما القبائل الجنوبية الشرقية فكانت مستقلة تماماً لا تعترف إلا بسلطان أغواتها وبكواتها.

وبعد أن أطاح تيمور لنك بعرش السلطان بايزيد قضى شتاء ١٤٠١-١٤٠٢ في سهول كواباغ في جبال القوقاز بين نهري كورا وآراس. من هناك بعث تيمور بفرق استطلاعية إلى داخل الأراضي الكردية رامياً إلى الحصول على تأييد الشعب الكردي. وكان الثمن الذي عرضه تيمور لهذا التأييد هو إعفاؤهم من الإبادة التامة.

وقد ذكر المؤرخ ابن عرب شاه في كتابه "عجائب المقدور في أخبار تيمور" التفاصيل الكاملة لمعاملة الأكراد لسفراء السلام الذين بعثهم تيمور. فقد عامل الأكراد ذوو النفوس الكريمة سفراء تيمور بازدراء. لم يقتلوا أحداً منهم إذ ليس من قوانين الأكراد الأخلاقية قتل السفراء إلا أنهم عاملوهم معاملة مشينة فقد أقعدوهم مقيدين فوق ظهور الحمير في اتجاه عكسي بعد ان طلوا وجوههم باللون الأسود وطردوهم هكذا من البلاد الكردية.

ودفع الأكراد ثمن ذلك غالياً جداً فما أن ذابت الثلوج حتى تدفقت جيوش المغول بقيادة تيمور لنك في وديان كردستان وجبالها. وأحرق المغول القرى الكردية وأينما توجهوا تركوا وراءهم تلالاً من الرؤس البشرية.

وبينما كان جنكيز خان وهلاكو خان يتركان وراءهما قصصاً دامية عن ذبحهم أعدائهم وتمزيق صدورهم فإن تيمور لنك الذي ينتمي إلى نفس العنصر كان يخلف

وراءه أبراجا من الرؤوس الآدمية تعرف باسم كلا منار.

غير أن هذه الوحشية وهذا الارهاب لم يقضيا على روح الأكراد المعنوية. فقد تراجعوا إلى الوديان الداخلية وتسلقوا الجبال العالية حيث قاوموا المغول الذين تعقبوهم مقاومة شديدة. وعندما أدرك تيمور خطورة تعقب الأكراد إلى أبعد من ذلك اتجه نحو بغداد. وهناك في بغداد أقام مائة وعشرين تلاً من الرؤوس البشرية. ومن بغداد تقدم تيمور نحو سوريا ومن ثم عاد أدراجه إلى وطنه. ومات تيمور التتاري في ١٤٠٥ ولا يزال قبره قائماً في بخارى حتى الآن.

ظهور الأتراك على المسرح

أود أن أوضح قبل كل شيء أن الأتراك والمنغوليين والمغول هم ثلاثة أجناس متباينة ويجب عدم الخلط بينها. وقد كنت تحدثت في الفصول السابقة عن المنغوليين والمغول وفي هذا الفصل سأتحدث عن المغول والأتراك. فمن الناحية العنصرية واللغوية والثقافية يوجد حد فاصل (ولو كان حداً ضعيفاً) بين المنغوليين والمغول والأتراك.

أصل الأتراك

منذ أربعة آلاف سنة ظهرت قبيلة قوية الشكيمة تنتمي إلى نفس الأصل الذي تفرع منه أيضاً المغول والجونكو منذ زمن سحيق في القدم. وكانت تلك القبيلة تقطن المنطقة الواقعة في سبيريا شمالاً والتبت والصين شرقاً وبلاد الأوغور غرباً وتعرف هذه القبيلة الآن بالأتراك. وكانت القبائل التركية هذه يقودها أمراء عظام. وعندما برز هؤلاء الأتراك من منحدرات جبال قبيان شان إلى سهول آسيا الوسطى كانت لهم صفات جسمانية معينة يميزها علماء الأجناس بصفات الجنس الطوراني. وبينما كانت للجماعات التي تقطن المناطق الشمالية ميزات الشكل المنغولي، احتفظت الفروع الجنوبية بالعيون التي تشبه اللوزة والوجه الطويل المتوسط والأنف الحاد المستقيم والشعر الغزير الأسود مع جبهة مرتفعة منحدرة.

في حوالى القرن السادس كان للأتراك دولتان قويتان تمتدان من منغوليا وأطرف الصين الشمالية إلى البحر الأسود. وعندما مات يومين مؤسس الدولة الشرقية في ٥٥٢ مكث أخوه إيستيمي في الحكم ٢٥ سنة بعد أن أخضع الدولة الغربية. وقد قضت

امبراطورية الصين في عهد أسرة نانج على الدولة الشرقية في حوالي ٦٣٠م ثم قضت على الدولة الغربية حوالي سنة ٦٥٩م. وكن الأتراك في الشمال تحرروا سنة ٦٨٢ من الحكم الأجنبي وظلوا محتفظين باستقلالهم حتى سنة ٧٤٥م.

وقد تم العثور على أقدم أثر للغة التركية من مقبرتي بلجاكاغان وأخيه كولتجين اللتين اكتشفتا في أورخون بمنغوليا الداخلية. وقد نقشت هذه الكتابة في فترة تقع بين ٧٣١ و٧٣٤م وتشبه إلى حد بعيد الكتابة الإيرانية والآرامية. وكانت هاتان الدولتان تتألفان من وحدات قبائلية كونفدرالية. غيرها منظمة يتزعم كل منها خان. وكان هؤلاء الخانات مرتطبين معاً تحت زعامة رئيس حربي يلقب "بكاغان خان" لأنه كان ذا نفوذ قوي بين أبناء جنسه.

أمّا ديانة قدماء الأتراك فكانت خليطاً بين الوثنية والشامانية وتشبه كثيراً عقيدة جنكيز خان. وقبل ظهور الإسلام انتشر بينهم الاعتقاد بقوة صبير العالم والزمن ذلك المصير الذي يتمثل في الحسد والرغبة في الثأر ومن عظمة البشر. ولا يمكن لدولة تتكون من هذه العناصر أن تحيا إلاّ إذا كانت متماسكة تحت حكم زعيم قوي قادر على جيرانه بالغزو والاغارة.

وفي حوالى سنة ٧٠٠م كان الطرف الغربي الأقصى لهذه الدولة قد وقع تحت سيطرة العرب في عهد الأمويين. وفي حوالى سنة ٧٤٥ سقطت المملكة الشمالية أيضاً في أيدي قبيلة تركية أخرى هي الأوغور التي كانت تقطن ضفاف نهر سلينجا في الشمال. وفي خلال ذلك العهد دخل مسيحيو سوريا من النساطرة وبعثات مانشيا البلاد التركية وأثروا في الديانة والثقافة واللغة التركية تأثيراً كبيراً.

وبعد ذلك استولت قبائل الكرغيز على الأجزاء الشمالية من امبراطورية أوغور واضطر سكان تلك المناطق إلى الهجرة جنوباً إلى المنطقة المعروفة الآن باسم تركستان الصينية. ومنذ ذلك العهد بدأ الشعب التركستاني يتطور ويتخذ شكله الحالي وأصبح جنساً بشرياً قائماً بذاته.

وقد ساعد هذا الاختلاط بين الأغور والأتراك وكذلك تأثير البعثات التبشيرية من بوذية ومسيحية وما تشبه على تطوير اللغة التركية تطوراً سريعا وجعلها أكثر مرونة. ولم يكن الأدب التركي القديم يتعدى المؤلفات المترجمة والكتب الدينية.

وبعد مرور قرن من الزمان جاء سيل آخر من الغزاة فقد كانت قبيلة نانجوت تغير

على امارات ونجور في كانشو اما قبائل الكرغيز التي كانت قد طردت القبائل الاغورية من مواطن آبائها فقد وقعت بدورها تحت سيطرة قبيلة كيتاي المغولية.

وكانت أطراف الدولة التركية الغربية المتاخمة لحدود إيران واقعة تحت نفوذ الأمويين. وقد كانت هذه المنطقة مصدراً غنياً ومعيناً لا ينضب لأسواق الرقيق في الدولة العربية وقد صار العبيد والمماليك الذين قدمتهم تلك الأسواق فيما بعد حكاماً وأمراء للدول العظيمة التي قامت في بغداد ودلهي وظلوا زهاء قرون طويلة من أهم العوامل التي أثرت في تاريخ العالم الإسلامي وسياسته. لقد تمتع الأتراك في موطنهم الأصلي في شط آسيا خاصة في بلاد ماوراء النهر وبخارى وسمرقند بالهدوء والسلام خلال عهد السامانيين المستنير في القرن التاسع. وكان سامان خودات (إله قرية سامان في بلخ) إيرانياً مجوسياً اعتنق الإسلام سنة ٧٣٢م وعين والياً من قبل الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك (743-724). وفي حوالى ٨١٩ عين الخليفة المأمون حفدة سامان خودات الأربعة حكاماً على سمرقند وفرغانه وشاش وهيرات. وكانت تلك المدن آنذاك من أعمال تابريد. وقد تمكن أحمد حاكم فرغانه فيما بعد من السيطرة على سمرقند أيضاً. وفي سنة ٨٧٥ عين الخليفة ابنه نصارا على بلاد ماوراء النهر أيضاً.

تحول القبائل الكردية

أصبحت تركستان الغربية بعد موت تيمور لنك سنة ١٤٠٥ تحت الحكم الاسمي للأمراء التركمانيين بينما لم تستطع حكومة بغداد فرض نفوذها فيما وراء بلدتي كركوك والموصل. واحتفظت القبائل الكردية في المناطق الجبلية الداخلية باستقلالها التام يحكمها الأغوات من السليمانية وجمجمال وبنجوين. وكان نفوذ الأغوات يشمل إلى جانب قبائلهم نفسها البطون التي كانت تقطن بين ظهرانيهم والتي نشأت حسب التوزيع المهني وأود أن أشرح هنا كيف نشأت القبائل المهنية.

منذ ذلك العهد أصبح العامل الرئيسي لتكوين القبيلة قائماً على النظم الاقتصادية والمهنية بعد أن كان قائماً على نظام الأسرة. فقد كان رب الأسرة العادية في السابق يملك قطعة من الأرض يزرعها بنفسه بالحبوب الغذائية والخضروات والفواكه التي تسد الحاجة. وبالإضافة إلى ذلك كان لديه "مال" أي ماشية وإبل تكفيه حاجته من اللحم واللبن والزبد، فكان مكتفياً ذاتياً فيما عدا بعض الأشياء البسيطة التي كان يحصل عليها بالمقايضة على الفائض من منتجاته الزراعية. ولكن بدأت القبائل تحت ضغط

الظروف وبسبب ازدياد عدد أفرادها تتخصص في إنتاج نوع معين من متطلبات المعيشة.

وكان الأكراد المزارعون في أول الأمر منفصلين عن الأكراد الرعاة. وأصبح أكراد كوتشار أنفسهم بطنا من البطون وكانوا في البداية مثل باقي الأكراد خليطاً من طبقتي المزارعين والرعاة. ثم تركوا الأراضي الزراعية الصغيرة وأخذوا في رعي الأغنام والماشية. واضطروا تحت ضغط الظروف إلى اتباع عادات القبائل الرحل.

وحتى داخل القبائل الكبيرة أصبح الأشخاص الذين يزاولون مهنة معينة مثل البنائين الذين كانوا يبنون البيوت من الطين ويصلحونها، والنجارين الذين كانوا يصنعون ويصلحون المحاريث الزراعية وغيرها من الأدوات الخ... أصبحوا طبقات منفصلة وكونوا أنفسهم بطونا وأفخاذا. ومع ذلك ظلوا رغم تحولهم إلى فروع عدة متصلين بقبيلتهم الأم.

وقد ظل تاريخ الأكراد خلال تلك الفترة خالياً من أي أحداث سياسية أو حربية هامة. ومن جهة أخرى كانت تحدث تطورات أهم في الميادين الاقتصادية والاجتماعية كما ذكرنا من قبل.

الفرس الصفويون ١٥٠٨

تعكر صفو الهدوء الذي دام ثمانين سنة عندما اجتاحت جحافل الفرس الصفويين بلاد الأكراد ووصلت بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية. ففي عام ١٤٩٩ سار الشاه إسماعيل الصفوي بجيوشه إلى منطقة شيروان وضمها إلى مملكته وفي سنة واحدة شمل نفوذه جميع أنحاء غربي إيران من بحر قزوين شمالاً إلى الخليج العربي جنوباً. وكان السلطان بريق حاكماً على بغداد آنذاك.

وظل الشاه يحرز النصر تلو النصر ثم أرسل لال حسين ساعده الأيمن للاستيلاء على بغداد فاستولى عليها نتيجة لخيانة بعض الأسر المهيمنة على الأمور آنذاك وبذلك دخلت قوات صفوي مدينة بغداد عام ١٥٠٨ وظل العراق تحت حكم الملك الفارسي فترة من الزمن.

كان مصدر قوة الشاه صفوي الجيش الذي جنده من أبناء شمال غربي إيران. وبدلاً من معاداة القبائل الكردية (خاصة تلك التي تقطن سهول طورس وجنوب غربي بحيرة

أورميا) أخذ يشرك هؤلاء الأكراد في الإدارة ورحب بانضمامهم إلى جيشه.

ومع أن الملوك الصفويين كانو شيعة والأكراد متمسكين بمذهبهم السني إلاّ أنهم (الصفويين) اتبعوا سياسة سمحة تجاه الأكراد بصورة خاصة. غير أنني أود أن أذكر بوضوح أن الملوك الصفويين الذين كانوا شيعة ومسؤولين عن جعل مذهب الشيعة المذهب الرسمي لإيران وأن الأتراك الذين كانوا سنيين، استخدموا جميعاً قاسم الدين (اما شيعي أو سني) كأداة لبلوغ المرامي السياسية. ولكن لم يتعد الخلاف بين المذهبين أكثر من هذا. فعلى الرغم من استغلال الدين لبلوغ المرامي السياسية لم يحدث أي اضطهاد أو تمييز ضد السنيين الذين كانو مقيمين داخل الامبراطورية الصفوية ولا ضد الشيعة الذين كانوا مقيمين في الممالك السنية التابعة للاتراك والعرب.

لقد كان شعب الأكراد أحد الشعوب التي كانت تعيش داخل المملكة الصفوية الإيرانية وكانوا يشاركونهم مشاركة فعالة في إدارة البلاد ولم يكن الأكراد وحدهم الذين كانوا يلقون معاملة طيبة من جانب الملوك الصفويين بل والأقليات الدينية الأخرى أيضاً خاصة المسيحيين الأرمن وكان بعض كبار القادة في الجيش الإيراني أكراداً بل كانت فرقة الفرسان الإيرانية كلها مكونة من الأكراد. وكان الأرمن أيضاً يشغلون عدة مناصب في الإدارة ويزاولون المهن الطبية والصناعات الفنية والتجارة بل كان منهم بعض القادة في جيش الامبراطورية الصفوية.

وفي الشمال قلق السلطان سليم من ازدياد قوة الصفويين وبدأ يحصن خطوطه الدفاعية على الحدود التركية الإيرانية وكان سكان مناطق الحدود هذه مكونين من أكراد وشيعة وأرمن. وكان الأتراك يعتبرون المسيحيين الأرمن والشيعة طابوراً خامساً فبدأوا يجلونهم عن المنطقة الواقعة على جانبهم من خط الحدود ويوطنون مكانهم الأتراك والأكراد الذين جلبوا من داخل البلاد. وقد نفذت عملية نقل السكان هذه على جانبي الحدود التركية – الإيرانية.

الملا إدريس البتليسي

وفي هذه الأثناء ظهر في البلاط التركي سياسي كردي عظيم احتل مكانة مرموقة في مجلس مستشاري السلطان سليم. لقد كانت سيرة الملا إدريس البتليسي كفيلسوف وسياسي قدير حافلة بالاعمال الجليلة. توفي أبوه وهو لم يزل طفلاً صغيراً فكفله إمام مسجد في بلدته بتليس ورباه وعلمه.

وبتليس مدينة شهيرة تقع جنوبي بحيرة فان وكانت عاصمة لإمارة أرمنية أغلب سكانها من الأرمن. وكان الأرمن المسيحيون والأكراد المسلمون يعيشون في سلام ووئام كأخوة اشقاء ولم يبد الأرمن في تاريخهم الطويل أي عصبية دينية ولم يضطهدوا الأكراد ولا أي مسلم من الأتراك اللهم إلا إذا كان ذلك لصد هجوم يقع عليهم.

كان إدريس ينتمي إلى أسرة كردية عريقة وقد عوض موت والديه المبكر عندما عينه أحد الزعماء الأرمن سكرتيراً له ووقع في غرام ابنة سيده ولكن لما كان الأرمن لا يسمحون بهذا الزواج اختار الشاب الحل الأصلح والأنسب وهو الفرار بمحبوبته. وانضم إلى خدمة يعقوب خان أحد المطالبين بالعرش الفارسي. وفي بلاط يعقوب خان أخذ الملا إدريس يترقى حتى وصل إلى رتبة كاتب الدولة.

ولقد قام الأكراد خلال فترة الصراع بين الأتراك والفرس بدور على جانب كبير من الأهمية لم يسبق له مثيل في تاريخهم فقد سعى كل من الأتراك والفرس إلى كسب الأكراد إلى جانبهم لما كانوا يقدرون فيهم من صفات مميزة. وبدلاً من شن العمليات الحربية ضد كل منهما الآخر أخذ الأتراك والفرس يتنافسون على كسب مودة الأكراد.

ولم يكن الشخص الذي أثر في آراء الفرس والأتراك لاتباع سياسة التودد هذه نحو الأكراد سوى السياسي الكردي العظيم الملا إدريس البتليسي. وكان الملا إدريس خلال فترة اشتغاله مع يعقوب خان قد أجرى الاتصالات بين القبائل الكردية التي تعيش في جبال زاغروس وطورس، وكان الملا يتمتع بشعبية كبيرة بين الاغوات الأكراد لما امتاز به من قوة الشخصية إلى جانب سعة معارفه الادبية والفلسفية. وكان هو الذي أقنع الأكراد بخطورة حبس أنفسهم داخل القيود القبائلية وشجعهم على ترك الجبال والاستفادة من حضارة الدولة ومباهج الحياة. وكان الشيء الوحيد الذي امتاز به الأكراد هو عاداتهم وتقاليدهم القبائلية. وكانت لغتهم تشتمل على نسبة كبيرة من الألفاظ الفارسية وبعض الكلمات التركية. فإذا كانت عاداتهم وتقاليدهم قد بقيت سليمة لم يمسها شيء، وإذا كان بكواتهم ورؤساء عشائرهم قد ظلوا محتفظين بسيطرتهم على قبائلهم فإن التوازن الاجتماعي الذي تم على مرّ القرون ظل كما هو لم يتأثر. لذلك لقيت الخطوات التي اتخذها الملا إدريس ترحيباً من لدن الأكراد إذ أنها فتحت سبلاً جديدة للعمل للسكان الأكراد المتكاثرين دون الاضرار بكيانهم الاجتماعي. وعلى كل فقد كان على الأكراد ان يندمجوا في النظام المتغير لمجتمع العصور الوسطى.

ويوجد تشابه كبير بين الملا إدريس البتليسي والمغفور له السير صاحب زاده عبدالقيوم في منطقة الحدود الشمالية الغربية الباكستانية. فكلاهما كانا من أعظم السياسيين في عصريهما وكلاهما لم يسمحا لولائهما لصاحب السلطان أن يضر بولائهما الاساسي نحو شعبيهما. كما تشابهت الطرق التي استخدماها لتحسين مستوى شعبيهما.

وقد اشتهر الملا إدريس بجهوده من أجل نشر التعليم بين أبناء الشعب الكردي. وبعد وفاة يعقوب خان انضم الملا إدريس لخدمة الأتراك وعين مستشاراً للسلطان سليم عن شؤون كردستان وأرمينيا.

الحكومات الكردية

في ١٥١٥ أرسل السلطان التركي الملا إدريس البتليسي من اماسيا إلى كردستان مع أحمال من الهدايا للزعماء الأكراد وخوله سلطة عقد أي نوع من التحالف يراه مناسباً بينه وبين الاغوات الأكراد. وقد لقيت مهمته نجاحاً منقطع النظير إذ استطاع عقد معاهدات مع كل من شرف بك البتليسي ومالك خليل ولي عهد شجرت وحسين كيف ومحمد بك السوساني وأسرة بدرخان العظيمة الشأن في جزيرة ابن عمر وأمراء أربيل وكركوك والسليمانية وخلفاء أسرة بابان الكبيرة والبك الكردي في دياربكر وجمشيد بك المقدمي.

وكانت هذه البعثة هي الخطوة الأولى لبدء تسرب النفوذ التركي إلى داخل جبال الأكراد وديارهم. وقد ادى هذا التحالف إلى تدعيم روابط الصداقة بين الطرفين كما ضمن حماية الجيش التركي القوي للبكوات الأكراد. وفي مقابل ذلك لم يطالب السلطان التركي بأي جزية أو خراج ولم يجبر الاغوات على تزويد الجيش التركي بالجنود والعتاد.

لم يكن هذا التحالف بالتأكيد نوعاً من أنواع السيطرة بل كان في الواقع نواة لذلك النوع من الأحلاف الغير مشروطة التي تعقدها أي دولتين مستقلتين ذات سيادة حيث يكون العامل الأساسي هو تشابه عقلية الجانبين. ففي هذه الحالة تستفيد الدولة الأصغر والأضعف لأنها تستمد القوة والطمأنينة من انضمامها إلى خليفة أقوى منها. أما الدولة الأكبر والأقوى فتستفيد أيضاً بتوسيع منطقة نفوذها فهي تزيد قوتها وهيبتها في الصعيد الدولي.

كان هدف السلطان التركي من وراء هذا التحالف هو ضمان سلامة حدوده من عدوه اللدود ملك فارس. وبمرور الزمن تمكن الملا إدريس من تكوين تسع ولايات في البلاد الكردية تعرف باسم الحكومات وكانت كل حكومة مستقلة تماماً عن الحكومات الأخرى وعن السطان التركي ويحكمها (آغا) زعيم أقوى القبائل المقيمة في المنطقة واوسعها نفوذاً. وكان لكل آغا في كل حكومة جيشه الخاص ومحاكمه الخاصة وكان بعضهم يضرب السكة باسمه غير ان مشكلة العملة في كردستان لم تكن مشكلة عويصة إذ ان معظم التجارة كانت على اساس المقايضة. وكانت قيمة قطع النقود بصورة عملة على حسب ما تحتويه من معدن (ذهب أو فضة الخ..) وحسب استعمالها كحلية. إذ ان معظم النقود الذهبية والفضية كان يعتبر جزءاً من حلي المرأة الكردية.

وكان من بين الحكومات التي أنشئت بهذه الطريقة أربيل وكركوك وحسنكيف وجزيرة ابن عمر وهاكاري وساسون وآميديا وبيتليس. وكانت هذه الامارات المستقلة تقام بموجب فرمان سلطاني بمنح اغا القبيلة لقب بيلارباري وتتوارث ذريته حكم المقاطعة بنفس الحقوق والامتيازات. وكان الملا إدريس يمثل السلطان في الحقل الرسمي لتنصيب الاغا اميراً ويخلع الحلة السلطانية على الأمير الجديد.

وبمرور الزمن تطلعت القبائل الكردية الأخرى أيضاً إلى السلطان كي يعين أغواتها كحكام رسميين عليها. فنظمت القبائل الخمس الباقية وهي قبيلة اليزيدية في سنجار وقبيلة مهران (الأكراد المليين) وقبيلة نصيبين وقبيلة ارغاي– ميدان وقبيلة زوزا في درسيم وأطلق على كل منها سنجق باي وكلها تحت القيادة العسكرية العليا بيلارباي الأناضول قائد عام الجيوش العثمانية في آسيا. وبإقامة هذه الأمارات المستقلة على الحدود التركية الإيرانية أنشئت حلقة من الولايات المستقلة التي كانت صديقة للاتراك ولكنها كانت تصد الدولتين عن شن كل منهما الحرب على الأخرى. وحملت السنوات الثلاثمائة التالية ثمار بعد نظر السلاطين الأتراك ونجاح سياستهم الكردية. فان الأكراد لم يقوموا بأي شغب أو اضطراب ضد حكومة الباب العالي.

والجدير بالذكر أنه خلال القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر عندما كانت تركيا تقض مضجع أوروبا بانتصاراتها، إذ كانت فعلاً تكون خطراً فادحا عليها، أراد أباطرة أوروبا استخدام طريقة أخرى لازالة هذا الخطر بعد أن فشلت جيوشهم واسلحتهم في وقف الزحف العثماني، وظلت الدول الأوروبية تبذل محاولاتها

طوال القرون الثلاثة لكسب ملوك إيران إلى صفهم وتأليبهم على تركيا حتى تفتح جبهة ثانية ضدها. وكالعادة سيضرب أعداء الإسلام دائما على الوتر الحساس – وهو ضعف المسلمين ونجح ملوك أوروبا فعلا في خلق الظروف التي ادت إلى وقوع صدام مسلح بين تركيا وإيران. ونشبت حرب لا هوادة فيها بين السلطان العثماني والملك الإيراني.

وقامت الولايات الكردية المستقلة التي أنشأها الملا إدريس بدور فعال كمنطقة محايدة. بل كمنطقة منزوعة السلاح لا يمكن أن يعبر خلالها أي جيش غازي إلى أي من الجانبين وفي تلك الأثناء بدأت تغييرات كبيرة في كيان القبائل الكردية وفي ثقافتها. فقد أدى الاتصال المستمر بين الأكراد والأتراك إلى جانب كثرة التزواج بينهم إلى تغيير الأوضاع الاجتماعية بين الأكراد. فدخلت في لغتهم الألفاظ التركية التي كونت أكثر من ٢٠ من ألفاظ اللغة الكرمانجية وقامت امتن العلاقات بين الشعبين الكردي والتركي بسبب كثرة الاختلاط بينهما والسياسة الحكيمة التي اتبعها السلاطين بمنحهم الولايات الكردية الحكم الذاتي التام. كان من أهم نتائج منح الأكراد الاستقلال التام داخل إطار الامبراطورية العثمانية انهم اشتركوا مشاركة فعالة مع الحكومة التركية وتعاونوا معها تعاوناً وثيقاً.

ولم يعتدوا على أي قافلة تمر عبر إماراتهم. وإذا حدث أن إعتدى مجرم على أحد المسافرين المارين عبر الأراضي الكردية فان الاغا لا يهدأ حتى يعاقب المعتدي الأثيم أشد العقاب وينصف الاجنبي أو المسافر بدفع التعويض المناسب.

ولم يقم الأتراك بأي عمليات حربية ضد الأكراد خلال السنوات الأربعمائة التالية ومن جهة أخرى كان الأكراد ينضمون إلى سلك الجندية وكان بعضهم يرقون حتى يصلوا إلى رتبة القائد.

ولم اعثر أثناء أبحاثي الكثيرة على أي خبر عن نشوب أي قتال بين الشعب الكردي والجيش العثماني خلال تلك الفترة من التاريخ. ولذلك قررت ملأ هذا الفراغ بأعطاء قرائي فكرة عما كان يحدث خارج البلاد الكردية خلال تلك الفترة. والغرض من وراء ذلك هو تمكين القراء من الربط بين التاريخ الخاص بالأكراد والتاريخ العام المعاصر للمسلمين في ذلك الجزء من العالم.

السلطان سليمان القانوني

تولى السلطان سليمان العرش سنة ١٥٢٠ بعد وفاة أبيه السلطان سليم. ويعرفه العالم باسم سليمان القانوني بسبب الأعمال العظيمة التي أنجزها بوضع القوانين للشعوب المغلوبة داخل الامبراطورية التركية كما قام بتوسيع رقعة الامبراطورية. فضم إليها بلغراد (١٥٢١) ورودس (١٥٢٢) ودعم مركزه في الجهات الشمالية الغربية. وعندما نشبت الحرب من أجل عرش المجر بين فرديناند إمبراطور النمسا وفوافود جون زابوليا ملك ترانسلفانيا وقف سليمان في صف الأخير. وفي سبتمبر ١٥٢٩ استولى على بودابست حيث توج الملك زابوليا. ثم تقدم نحو فينا (عاصمة الامبراطورية النمساوية) وحاصرها. وكادت فينا تقع في يده لولا أنه فك الحصار في ١٥ أكتوبر سنة ١٥٢٦ بسبب نقص التموينات.

ويعترف دارسو التاريخ الأوربيون بأنه لو وقعت فينا في يد السلطان سليمان القانوني لتغير مجرى تأريخ أوروبا كلها بل وتاريخ العالم أجمع. والواقع ان تطور الأحداث في الشرق قد حولت انتباه السلطان عن أوروبا إذ علم في سنة ١٥٢٤ عن ازدياد النشاط الإيراني على حدود تركيا الشرقية.

كان يحكم بغداد منذ أيام الشاه إسماعيل صفوي والي إيراني لا يعترف بخلافة السلطان التركي. وفي سنة ١٥٢٤ جلس الشاه تهماساب ابن الشاه إسماعيل على عرش فارس وفي عهده ساءت العلاقات التركية– الإيرانية إلى أبعد حد وظلت بغداد تحت حكم الوالي الإيراني ولكن في هذه المرة اختلف الوالي الإيراني مع ملكه، بسبب نجاح نشاط الأتراك الدبلوماسي ودعا السلطان التركي إلى بغداد. فأرسل الملك تهماساب جيشاً قوياً إلى بغداد لمعاقبة الوالي الخائن وبذلك ظهر الأكراد على المسرح مرة أخرى. إذ كان على الجيش الإيراني ان يمر عبر الأراضي الكردية. ولكن لقي ذلك الجيش الجرار المجهز بالأسلحة الثقيلة عراقيل عاقته عن سيره بسبب هجمات الأكراد وغاراتهم المتواصلة. وأنهك الأكراد قوى الجيش الإيراني فكان ذلك من العوامل الرئيسية التي أدت إلى هزيمته في النهاية.

وفي نفس الوقت سار السلطان سليمان ووزيره إبراهيم باشا (في سنة ١٥٤٣) على رأس جيشين ووجهتهما بغداد. وفي إبريل ١٥٤٣ عبر الشاه نهر الفرات عند بيرجيك

ووصل إلى دياربكر في مايو. وفي هذه الأثناء كان إبراهيم باشا قد تقدم حتى وصل إلى تبريز عاصمة الامبراطورية الصفوية التي كان الشاه قد أخلاها. وبات هدف الجيشين المقتتلين الوصول إلى بغداد. وكان عليهما أن يمرا عبر الأراضي الكردية وكان هذا في الواقع هو أول اختبار لإخلاص الأغوات الأكراد لحلفائهم الأتراك، إذ لم يوضع ولاؤهم منذ تحالفهم مع السلطان موضع اختبار.

وفي بغداد استسلم الوالي الإيراني للسلطان بدون مقاومة، وانتقل الحكم بدون إراقة دماء إلى أيدى الأتراك برضاء السكان العرب. وقد وصف المؤرخون المعاصرون موكب دخول السلطان إلى بغداد في نوفمبر ١٥٣٤ وصفاً رائعاً مسهباً. وأقام السلطان سليمان القانوني في بغداد سنتين أنشأ خلالها المباني الفخمة وحفر الترع والقنوات وأقام المنشآت العامة بالاضافة إلى إقرار السلام وتنظيم الادارة والحكم ثم عاد إلى إستنبول بعد أن ترك وراءه والياً تركياً ونائبين للوالي إلى جانب قائد للجيش.

وخلال المائتي سنة التالية نجد الأكراد قد نسيهم التاريخ تقريباً كأمة قائمة بذاتها. ولم يقع أي خلاف إطلاقا للأكراد مع (لا الأتراك ولا الإيرانيين ولا العرب). وبالطبع لا يختلف الأكراد عن الآخرين إلا الاختلاف الذي تحتمه البيئة الطبيعية. فالذي نجده هو اختلاف بين شعب يعيش في السهول وآخر يعيش في الجبال. وفيما عدا ذلك كان الأكراد يعيشون جنباً إلى جنب مع العرب والفرس والأتراك في انسجام ووئام تام.

الشاه عباس الثاني ١٥٨٥–١٦٢٨

واستمر النزاع بين الأتراك والفرس لمدة مائة سنة أخرى. في عام ١٥٨٥ اعتلى الشاه عباس الثاني عرش فارس. وكان الملك الشاب مملوءاً بالنشاط والحماس لمد أطراف مملكته والسيطرة على جيرانه. وكانت تركيا أقوى من أن يتحداها. لذلك عزم الشاه على غزو الشرق. وكان الازبكيون يغيرون دائماً على المدن الإيرانية المتاخمة للحدود لذلك قام الشاه بحملة ناجحة على الأزبكيين في آسيا الوسطى. ولم يطردهم من الحدود فحسب بل واقتطع جزءاً كبيراً من بلادهم ثم أخذ الشاه عباس يوزع الأراضي في شمال شرقي إيران على القواد الأكراد الذين شاركوا في الحرب. وهاجرت عدة آلاف من الأسر الكردية من كردستان واستقرت في الحدود الشمالية الشرقية من إيران– وقد جعله هذا محبوباً لدى الأكراد.

وكانت الخطوة الحكيمة الثانية هي إقناع الأمير شرف الدين الكاتب والمؤرخ الكردي

الشهير بأن يكتب تاريخاً عن الأكراد محرراً الحقائق التاريخية لصالح إيران ضد السلطان التركي. وكان الهدف من وراء ذلك هو وقف الاندماج التاريخي الذي كان جاريا بين الأكراد والأتراك وكذلك إثارة النعرة الافتخارية التقليدية للأكراد وتذكيرهم باتصالهم القديم ببلاد الفرس والشرق فيتم بذلك تحويل عواطفهم عن الامبراطورية العثمانية. غير أن كتاب تاريخ القبائل الكردية الذي ألفه الأمير شرف الدين (المسمى الشرفنامه) هو كتاب قيم ودائرة معلومات واسعة، ورغم ما ذكرنا فيه من النقص، فهو يحوي تاريخ القبائل الكردية جميعها وأصلها وتفاصيل الحملات والحروب وأسماء الأغوات الأكراد الذين اشتركوا في تلك الحروب. وقد ألف الكتاب باللغة الفارسية وترجم إلى اللغة الكرمانجية.

نادر قولي خان

في أوائل القرن الثامن عشر استولى الأفغان على عرش فارس بشجاعة قبائلهم وبسبب الفساد الذي انتشر بين الصفويين أنفسهم. وأصبح نادر قولي خان الذي ولد في أسرة متوسطة الحال، زعيماً لقبيلة أفسار. وكان أكبر مصدر للرعب والإرهاب في عصره لما كان يقوم به من غارات وفتوحات.

وفي ١٩ مارس ١٧٣٣ عبر نادر قولي خان بقواته خلال الأراضي الكردية لفتح بغداد وقاوم الأكراد الجيش الأفغاني مقاومة عنيفة بما عرف فيهم من كراهية أي معتد على بلادهم ولكنهم لم يصمدوا أمام جيش نادر قولي الذي كان يفوقهم قوة. وأثارت القوات الأفغانية الرعب والفزع في قلوب الأكراد بذبحهم نساءهم وأطفالهم وسوقهم الرجال كالأنعام بعد إحراق بيوتهم وقراهم.

وفي ١٧ يوليو ١٧٣٣ هزم نادر قولي خان على يد طوبال عثمان باشا (عثمان باشا الأعرج) القائد التركي العظيم على أبواب مدينة بغداد. وكانت فرقة الفرسان في الجيش التركي مكونة كلها من الأكراد. وحتى بين الرجال وقوات المدفعية كانت نسبة الأكراد كبيرة. وقد كان نادر قولي معجباً جداً بل كان جزعاً من صفات الأكراد الحربية حتى أنه أصدر أوامره بالتقهقر إلى إيران. وكان عليه أن يعبر مرة أخرى البلاد الكردية وأينما توجه كان يثأر من الأكراد بقطع رؤوسهم وتكويمها في هيئة أبراج في القرى الكردية. وكان يقول إنّ الأكراد أشرس من الذئاب ويجب إبادتهم من وجه الأرض.

وتعقب طوبال عثمان القائد التركي القوات الأفغانية المتقهقرة ثم توقف نادر قولي

فجأة في إحدى القرى الصغيرة وتسمى ليلان وتقع على بعد ١٢ ميلاً من كركوك في سهل منبسط يزداد صعوداً تجاه الشمال.

وفي ذلك الموقع الممتاز استدرج القائد الأفغاني الذكي الجيش التركي إلى أرض المعركة التي اختارها هو حيث دارت معركة حاسمة في ٢٦ أكتوبر ١٨٣٣ انتهت بهزيمة الأتراك ومقتل القائد الشجاع طوبال عثمان باشا (الأعرج). ولم يستغل نادر قولي هذا الانتصار لأنه كان وسط بلاد الأكراد تماما. لذلك قرر مواصلة التراجع إلاّ أنه ظهر مرة أخرى في الموصل بعد عشر سنوات.

لقد كان نادر قولي خان قد أقسم أن يبيد الأكراد من وجه هذه الأرض. وفي هذه المرة بدأ الحرب بحصار مدينة الموصل أهم مدن كردستان (في سبتمبر ١٧٤٣). وبعد أن شدد الحصار لعدة أيام شن الهجوم حسب خطة مدبرة. ففجر عدة ألغام فانفتحت ثغرة في سور المدينة. وأخذ الأكراد الشجعان يسدون الثغرة بجثث موتى العدو واستطاعوا رد المهاجمين على أعقابهم. وأخذ الأفغان يقذفون بالنيران على أبواب المدينة. ولكن الرياح ردتها عليهم وحاول الأفغان الصعود على الأسوار ولكن الأكراد كانوا لهم بالمرصاد فكانوا يتلقفون كان جندي أفغاني يتسور السور بقطع رأسه فكانت رؤوس الجنود الأفغان تتساقط على زملائهم في أسفل السور.

واستمر هذا القتال العنيف، كل جانب يبذل محاولاته للقضاء على الآخر. وأخيراً نجح الأكراد في سد الثغرة وإصلاحها. وبذلك اضطر نادر قولي خان إلى التراجع إلى بلاده بعد أن لقي مقاومة بطولية من الأكراد.

كريم خان زندي (١٧٥١-١٧٧٩)

وبعد انقضاء الغزو الأفغاني لفارس نشب النزاع من جديد بين قبيلتي كاجار وبختياري. وفي سنة ١٧٥٠ عين مردان خان زعيم قبيلة بختياري نفسه وصياً على عرش الامبراطورية وانضم إليه كريم خان زندي الذي أصبح في ذلك الوقت زعيماً بلا منازع للقبائل الكردية واللوريستانية التي تقطن جنوب غربي إيران.

وكان مردان خان وكريم خان زندي قد تحالفا خلال السنوات السابقة وهزما الغزاة الأفغانية. ولكن سرعان ما دب الخلاف بينهما على السلطة. وكان وراء كريم خان زندي الجيش الكردي القوي وبذلك أصبح الوصي الوحيد على العرش لمدى حياته.

واتخذ كريم خان من شيراز في جنوب فارس قاعدة لحكمه. ومما يذكر أن تلك المنطقة كانت أيضاً مهد الأسرتين الاخامينية والساسانية.

وحارب كريم خان عدوين وهزمهما بفضل خيّالته المكونة من الفرسان اللوريين والأكراد والبختياريين والعرب وبذلك استتب السلام في فارس زهاء عشرين عاماً.

وبعد وفاته اعتلى الحكم لطف علي خان أحد زعماء القبائل اللورستانية ولكنه لم يستطع الصمود أمام قبيلة الكاجار وهي من القبائل التركمانية التي اتخذت طهران مقراً لها وبسطت نفوذها في شمالي فارس. فقد وقع في كمين نصبه له التركمان وسلم إلى آغا محمد خان مؤسس أسرة كاجار الذي قتله بعد أن قلع عينيه في ديسيمبر ١٧٩٤.

غير أن بعض المؤرخين لايعيرون اهتمامهم لتلك الفترة القصيرة من حكم الأكراد في جنوب إيران. ففي رأيهم أن ذلك العهد لم يكن إلا مغامرة ناجحة قام بها أحد زعماء القبائل خاصة في زمن ضعفت فيه الحكومة المركزية بإيران. ولكن مما لا شك فيه أن عهدي كريم خان زندي ولطف علي خان قد أعطى جنوب إيران وجنوبها الغربي جرعة لا غنى عنها من السلام ظلت ثلاثين سنة متواصلة. وأدى ذلك إلى ازدهار البلاد كلها وإعادة العلاقات التجارية مع العراق وباقي العالم العربي.

وسوف نرى في الفصل القادم الأهمية الكبرى التي احتلها جنوب وجنوب غربي إيران خلال القرن التاسع عشر نتيجة لاكتشاف النفط في تلك المنطقة.

الفصل السادس

الماضي القريب

آثرت في تكييف تاريخ الشعب الكردي خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أربعة عوامل رئيسية وهي حسب ترتيبها التاريخي:

١– الثورة الصناعية في أوروبا

٢– إضمحلال قوة الامبراطورية التركية

٣– إكتشاف النفط في البلاد الكردية

٤–وازدياد نشاط أعداء المسلمين المنظم لخلق التوتر والبغضاء بين الشعوب الإسلامية حتى تخور قواهم ويجعلهم يحاربون بعضهم بعضا.

وقد ازدادت أهمية العامل الرابع في العصر الحاضر بسبب وجود شعور بين جميع المسلمين بالحاجة إلى الوحدة تمليه عليهم عوامل تاريخية ثابتة لا تتغير.

ويوجد نوعان من القوى المعرقلة التي تقف في وجه هذا التقدم. أولهما الدول التي ترى أن من مصلحتها تجزئة العالم الإسلامي وتقطيع أوصاله باستغلال العقيدة غير الإسلامية -عقيدة القومية– فهذه العقيدة القومية لا يقبلها الإسلام لأنها تحدد الوطن بحدود جغرافية ولغوية وعنصرية.

أما النوع الآخر من العراقيل فهم أولئك (الذين يدعون بأنهم مسلمون) الذين يؤلفون المنظمات السرية وشبه السرية بين أفراد الشعب المسلم وتتخذ في الظاهر أسماء حديثة بريئة أحيانا أو أسماء حديثة أحياناً أخرى ولكنها تهدف إلى فرض سيطرتها على الحكومات الشرعية بأي طريقه كانت. وينظم أفراد هذه المنظمات أنفسهم تنظيماً دقيقاً وهم في الواقع يكونون حكومات أخرى في الخفاء. ويعين هؤلاء الرجعيون أعضاءهم في المناصب الحساسة في الدوائر الحكومية مستخدمين كل طريقة دنيئة عديمة الرحمة يقضون على كل من يقف في طريقهم.

إنني أسميهم رجعيين لأنهم يضحون بمصالح الإسلام العالية السامية في سبيل الحصول على مكاسب دنيوية لأعضاء جماعتهم. إنهم بخلقهم الظروف والأحوال التي يسعون من أجلها فإنما يبطلون آثار الجهود التاريخية التي بذلت من أجل تدعيم

المسلمين في جميع أنحاء العالم وتوحيدهم في أمة واحدة وحكومة واحدة.

الثورة الصناعية في أوروبا

لقد أتاحت الثورة الصناعية في أوروبا للإنسان الفرصة للسيطرة على قوى الطبيعة التي لم تكن معروفة للبشرية حتى ذلك الحين. وكان الأثر الرئيسي هو زيادة الإنتاج الصناعي مما أدى إلى خلق مشكلتين إحداهما إيجاد أسواق لتصريف الفائض من احتياجات الدولة والأخرى إيجاد مصدر سنوي للمواد الخام.

وقد حلّت الدول الأوروبية هاتين المشكلتين عن طريق فرض استعمارها لأجزاء أخرى من العالم. فنزلت في هذا الميدان كل من هولندا والبرتغال وفرنسا وإنجلترا واحدة بعد الأخرى. ودخلت ألمانيا الميدان متأخرة ولكنها دخلته بنشاط أكثر من أي دولة أوروبية أخرى.

وقبل منتصف القرن التاسع عشر كانت أقدام إنجلترا راسخة في شبه القارة الهندية العظيمة وأصبحت السيادة لها فيها دون منازع. وحتى ذلك الوقت أحرزت إنجلترا انتصاراً حاسماً على باقي منافسيها من الدول الأوروبية في ميادين التصنيع والاستعمار واستغلال مصادر ثروات مستعمراتها. وكان العامل الرئيسي لسياستها الخارجية هو الاتجار مع الشرق. ومن أجل ذلك باتت المهمة الأولى لقواتها المسلحة هي فتح الطرق التجارية والمحافظة عليها. وصادف أن كان الشرق الأوسط واقعاً في طريق بريطانيا إلى امبراطوريتها في الشرق وكان الشرق الأوسط آنذاك جزءاً من مجموعة الدول المشتركة في الامبراطورية التركية. ولم تزل تركيا دولة قوية يعمل لها حساب. ولهذا السبب ولأسباب أخرى لم يتمكن الإنجليز من فرض سيطرتهم على الشرق الأوسط بسهولة ولكنهم لم يخفوا غرضهم بجعل الشرق الأوسط زاداً احتياطياً خصوصياً لهم. أي ما يسمى باللغة الدبلوماسية المعاصرة "منطقة النفوذ".

وكانت روسيا جارة مباشرة لتركيا وإيران. وكانت تتطلع منذ زمن بعيد إلى ثغور المياه الجنوبية الدافئة. وقد كانت روسيا هي أيضاً تتوق إلى الوصول إلى الخليج العربي والمحيط الهندي باختراق إيران. لذا تسابقت كل من بريطانيا وروسيا على اقتطاع أكبر جزء من الامبراطورية التركية. وحقيقي أن بريطانيا العظمى قد ساعدت تركيا في وقت من الأوقات (في حرب القرم) ضد روسيا. ولكن لم يكن هذا من أجل المحافظة على قوة تركيا بل كان اختياراً من جانب الإنجليز بين قبول الخطر الذي يهدد

الإمبراطورية التركية التي ينتظرونها (أملاك تركيا في الشرق الأوسط) وبين فقدان امبراطوريتهم في الهند (دخول روسيا إلى الهند من طريق الحدود الشمالية الغربية). وكان القرار الذي اتخذوه سليماً.

وسوف نرى الآن كيف أثرت التغييرات التي طرأت على النظم العالمية المعاصرة في تكوين تاريخ الأكراد خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وكما ذكرت من قبل أن الدويلات (الحكومات) الكردية التي أنشأها الملا إدريس على غرار النظام الإداري التي قد ساعدت على استمرار السلام والرخاء بين أفراد الشعب الكردي وغيره من الشعوب التي كانت ضمن الامبراطورية التركية. والآن كلما ازداد طمع الدول الكبرى في الامبراطورية التركية بدأت الدول المعنية ترسم الخطة لتوزيع تركة الرجل المريض قبل أن يتوفى فعلاً وقد أدى هذا التسابق الجنوني فعلاً إلى استخدام بعض الحكومات الطامعة لأساليب دنيئة أدت في النهاية إلى مصرع آلاف من الأرمن الأبرياء.

إضمحلال قوة تركيا

روسيا: خسرت تركيا في حرب خاضتها مع روسيا كلا من ينكربوليس وسيلستريا ورشترك - وبموجب معاهدة بوخارست التي عقدت في ٢٨ مايو عام ١٨١٢ اعتبرت بروث حدا فاصلاً بين الدولتين.

الصرب: ثار الصرب ضد الأتراك سنة ١٨٠٤ بزعامة كارا جورجوسي وساعدتهم روسيا مساعدة فعالة.

ثورة اليونان

ثم جاء دور ثورة اليونان سنة ١٨٢٠ ولم تفقد تركيا من جراء هذه الثورة ولاية ذات قيمة فحسب بل فقدت أيضاً هيبتها أمام الدول مما أدى إلى حدوث تعقيدات دبلوماسية لا حصر لها.

وفي ٧ يوليو ١٨٢٧ عقدت كل من فرنسا وبريطانيا وروسيا معاهدة الحلف المثلث ثم انضمت بروسيا إليها فيما بعد. وذلك لإرغام تركيا على منح اليونانيين حريتهم. وفي نفس الوقت ارتكبت الدول الأوروبية عملاً إجرامياً خطيراً بتدميرهم الأسطول التركي الراسي في نغارين على ساحل شبه جزيرة المورة. لقد كان ذلك خيانة كبرى

لأن كل الدول التي اشتركت في المعركة ضد الأسطول التركي لم تكن قد أعلنت الحرب ضد تركيا.

وفي سنة ١٨٢٧ أعلنت روسيا الحرب على تركيا بعد أن استعدت لها استعداداً وافياً. ولكن جيوشها لم تستطع التقدم في بلاد البلقان والقفقاز. وفي ربيع عام ١٨٢٩ تولى الجنرال ديبتش قيادة الجيوش الروسية في أوروبا واستولى على شوملا التي كانت أهم العقبات التي وقفت في طريق الزحف الروسي وطوق أدريا نوبل فاضطر السلطان إلى عقد الصلح في ١٤ سبتمبر ١٨٢٩. وقد أملى الجنرال الروسي شروط الاتفاق ومنها استيلاء روسيا على جزر الدانوب والمناطق التركية الواقعة في القفقاز بين جورجيا واميريتيا.

وفي هذه الأثناء كانت الدول الأوروبية خاصة روسيا قد أرسلت جواسيسها لإشعال الثورة في قلب الامبراطورية التركية واختاروا شعبي الأرمن والأكراد لبدء النشاط (يخلصون الولاء للدولة التي يعيشون فيها) فالكنيسة الأرمنية تتبع المذهب الأرثوذوكسي اليوناني الذي تعترف به روسيا القيصرية. وبعد أن أقام الروس هذه الصلة الدينية حرضوا الأرمن على الثورة ضد تركية والمطالبة بالاستقلال وقد ضربت لهم الدعاية الروسية مثلا من نجاح الثورة اليونانية.

إبراهيم باشا المصري

وفي سنة ١٨٣٢ ثار محمد علي باشا والي مصر ضد السلطان التركي. وأحرز ولده إبراهيم باشا قائد جيوشها النصر في وقائع حمص وبيلان وصارت سوريا تحت السيطرة المصرية. وكذلك قامت اضطرابات في شبه جزيرة العرب حيث بعثت الحركة الوهابية آمالاً جديدة في قلوب البدو.

خان محمود

وهكذا وجد الأكراد البسطاء أمامهم مثلين لثورة المسلمين ضد الحكم التركي المسلم فقاموا بسلسلة من الثورات وفي إحدى هذه الثورات لمع اسم خان محمود الزعيم الكردي الكبير.

وكان خان محمود ينتمي إلى أسرة عريقة هي أسرة ادفال خان التي تتبع المذهب اليزيدي ويرجع أصلها إلى الهكاريين. وقد حكم مدينة فان أحد فروع أسرة الشير ادفال

خان اليزيدية بعد غزوات تيمور لنك. ولم يتخذ خان محمود لنفسه أي أهداف سياسية اللهم إلاّ اشتراكه مع بدرخان بك الذي كان يحلم بأن يكون ملكا على الأكراد.

وقد قال اسكولونيل ج شيال في مذكراته عن رحلة من تبريز عبر أراضي كردستان التي نشرها في مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، الجزء الثامن، بتاريخ ديسمبر ١٨٣٩، قال كان خان محمود شخصاً مهيباً جداً مرهوب الجانب وكان قد استولى مؤخراً على مقاطعات خافاسور فلم يكن نفوذ إسحاق باشا (الوالي التركي) يتعدى السهل الذي تقع فيه مدينة فان. أمّا الخان فكان يسيطر سيطرة عسكرية على الجبال والوديان.

غير أنّ الخان كان يدين بالولاء الإسمي لأرضروم. وكان السكان يئنون تحت ضغط الضرائب الفادحة إلا أنّهم كانوا راضين عن حكم خان محمود الصالح وشرطته المنظمة. وكان من بين حلفائه رجال الدين الأرمن وزعماء قبائل شكاكي وهرتويش وأمراء فان.

وقد بدأت سلسلة الثورات الكردية في جبال سوريا الشمالية وامدت شرقاً حتى بحيرة فان، وقد اعقبت الهجوم الذي شنه القائد المصري إبراهيم باشا على سوريا. وكان على رأس الثوار قبائل مهران اليزيدية التي تقطن في جبل سنجار وفيران شهر.

أمّا المرحلة الثانية لثورات الأكراد فكانت بين ١٨٤٠ و١٨٤٧ وكان بدرخان بك هو زعميها ومدبرها الأول.

بدرخان بك

كان بدرخان بك زعيم قبيلة الهكاري التي تعيش على بعد ثمانية عشر ميلا شرقي الجزيرة عبر نهر دجلة. وكان مقره قلعة حصينة سماها درجول (بوابة الأزهار) وكان آباء بدرخان وأجداده يرثون رتبة البكوية التي خلعها عليهم الملا إدريس قبل ثلاثة قرون. وكان الأتراك يعترفون بزعامة أسرته على القبائل الكردية المجاورة مما جعله الآغا الشرعي للقبائل القاطنة في جزيرة ابن عمر وحولها.

وكان بدرخان بك ذا شخصية قوية نقية. وكان طويل القامة ممتلئ الجسم جميل الوجه. وكان يمتاز بالشجاعة والإقدام وبدقة إصابة الهدف والمهارة في ركوب الخيل. وكان مشهوراً بالصدق والأمانة والرحمة والشفقة. وامتد نفوذه من الحدود الفارسية شرقاً إلى داخل بلاد مابين النهرين ومن أبواب دياربكر إلى أبواب الموصل. وكان يدين

له بالولاء كل زعيم كردي في كردستان الشمالية ويقدم له الهدايا من الذهب والخيل والبغال وغيرها من الأشياء الثمينة. وغالباً ما كان يقف بين يدي بدرخان بك في بلاطه بقلعة درجول كثير من الرؤساء والشخصيات الكردية البارزة.

وهكذا تولى بدرخان بك زعامة القبائل الكردية بقوة شخصيته وقيادته الحكيمة. ولكن لم تكن هذه الأسباب كافية فإنّه قد ازداد قوة بضعف الامبراطورية العثمانية إلى جانب المساعدة التي قدمها الروس للأكراد في ثورتهم ضد الأتراك. وفي خلال السنوات العشر التالية أصبح بدرخان بك الملك غير المتوج للشعب الكردي وأمله أن ينشئ كردستان مستقلة تحت سيطرة الروس.

وكان برنامجه السياسي يهدف إلى تكوين إتحاد كونفدرالي بين القبائل الكردية الشمالية وبين أكراد الجنوب الذين كانوا خارجين تماماً عن نطاق سيطرة الامبراطورية التركية. وكان أول عمل تحدى به الحكومة التركية هو رفضه تجنيد الأكراد في الجيش التركي. وكانت تركيا آنئذ في حرب مع روسيا (١٨٢٣–١٨٢٩).

وبعد أن حلت فرق الانكشارية سنة ١٨٢٦ وأدخلت الاصلاحات العسكرية تحت إشراف فون مولتكه القائد البروسي الشهير أعيد تنظيم الجيش التركي على أحدث النظم العسكرية وأصبح مكوناً من جنود مدربين يتسلمون رواتبهم مباشرة من خزانة الدولة. وكانت فرق الخيالة مكونة كلها من الفرسان الأكراد خاصة من رجال قبائل بوهتان وجبل جودي وهما من مناطق نفوذ حركة بدرخان بك الكردية وكانت قبائل ميران وتايان وبتوان ودودير وكاشان وشرماخ القوية الشكيمة تزود الجيوش التركية بحوالي أربعين فرقة. وكانت قبائل حيدران وجيران وجلال وموجور تزودها بحوالي عشرين فرقة. وكانت بعض الفرق الأخرى تجند من إقليم دياربكر من بين القبائل الملية (المهرانية) وبطونها في فرتاشهر ونهر الخابور.

وهكذا كان السواد الأعظم من الخيالة التركية يجند من القبائل الكردية وكان أي تدخل في عمليات التجنيد العادية يضر ضرراً كبيراً بكيان الدولة التركية.

وعلاوة على ثورة بدرخان ارتكب الأكراد فعلة شنعاء بذبحهم حوالي عشرة آلاف من النساطرة المسيحيين وحوالي نصف ذلك العدد من الأرمن سنة ١٨٤٣ وتقدم الزعماء المسيحيون في إستنبول بالعرائض والالتماسات إلى السطان لوقف الفتنة والاضطراب الذي سببته حركة بدرخان الاسقلالية فكلف عثمان باشا بإعادة السلام وحماية أرواح

وممتلكات الأرمن والنساطرة المقيمين في الأراضي الكردية.

وفي سنة ١٨٤٤ دعا المشير عثمان باشا جميع زعماء القبائل الكردية لعقد مؤتمر عام في دياربكر. وكان الهدف من ذلك هو تنفيذ أوامر السلطان المتعلقة بحماية أرواح المسيحيين وممتلكاتهم وكذلك بحث الطرق والوسائل لإعادة النظام والأمن إلى نصابهما في المنطقة.

وتجاهل بدرخان دعوة السَرعَسكر العثماني. بل لبس جبته المطرزة بالذهب وعمامته الزاهية الألوان وسرواله الحريري المخطط وراح يجول بين القبائل مصطحبا طوابير من أتباعه المخلصين المسلحين بالخناجر والبنادق القديمة، وأخذ ينشر دعوته فزار جميع الزعماء المحليين من الجزيرة إلى الشواطئ الجنوبية لبحيرة فان ودعاهم للتبرع لصندوق الحرب، ولكن لم تستطع الطرق المسرحية ومظاهر الأبهة هذه أن تكسب ولاء عامة الشعب الكردي فأخذ يجمع التبرعات بالقوة مما كان له وقع سيء وعبء ثقيل على النساطرة والأرمن المسيحيين المسالمين. وقدم المسيحيون الكاثوليك في أخميازين والبطارقة إلتماسات مشتركة إلى السلطان وبعثوا بالمنشورات إلى مجالسهم الإقليمية لمنع أفراد طائفتهم من دفع أي شيء للزعيم الكردي الثائر. بل طلبوا من جميع المسيحيين أن يقوموا بتأييد الجيش العثماني وإخماد الثورة الكردية.

وحشد عثمان باشا قوات ضخمة في دياربكر بالجنوب وفي فان بالشمال. وكان على القوات الشمالية أن تسير إلى هكاري موك على طول نهر دجلة لتمزق شمل قوات نورالله ومحمود وتدفعها نحو مرتفعات بوهتان – برواري ومن هناك تهاجمها القوات الجنوبية من دياربكر، والغرض من ذلك هو محاصرة بدرخان بك والزعيمين الآخرين في الجبال.

وبدأت العمليات الحربية في ربيع سنة ١٨٤٧ وبدأ الجيشان يطبقان تدريجيا على الثوار. وبعد أن قضى الجيشان العثمانيان على جيوب المقاومة الصغيرة تقدما في حركة كماشة نحو وادي بوهتان حيث اشتدت مقاومة الأكراد وأينما توجه الأتراك قوبلوا بالترحيب الحار من قبل المسيحيين النساطرة والأرمن الذين اعتبروهم محرريهم ومخلِّصيهم. وفي نفس الوقت ساعد وصول القوات الألبانية المتخصصة في حرب الجبال على تصفية آخر جيوب المقاومة.

ولما وجد بدرخان نفسه محاصراً من جميع الجهات نزل من الجبل في أغسطس سنة

١٨٤٧ واستسلم للمشير عثمان باشا الذي أحسن استقباله وسمح له بالاحتفاظ بسيفه وعامل أسرته معاملة كريمة وأخذ منه صندوق الحرب ليحفظه أمانة. وأرسل بدرخان بك وأسرته وأقاربه إلى إستنبول في حراسة مشددة. وحكم عليه بالنفي إلى فرنا ونفي بعض أعوانه إلى كيت وكانديا.

وبذلك انتهت السلسلة الثامنة من الثورات الكردية التي شجعتها دعايات الأعداء المغرضة لخلق الشقاق بين المسلمين وشجعها أيضاً ما حل بالامبراطورية التركية من ضعف وانحطاط.

إستقرار الأكراد في الأراضي الزراعية

تسببت حرب القرم في تدفق عدد كبير من اللاجئين المسلمين على شرقي تركيا خاصة من المسلمين الشراكسة. وبما أن اللاجئين كانوا أكثر تقدماً واجتهاداً في العمل فقد سارعوا باستغلال الأراضي التي استقروا فيها. وقد أدى ذلك إلى استياء القبائل الكردية التي كانت تقطن هذه المنطقة من قبل وتسبب في وقوع الخلاف بينها وبين اللاجئين المسلمين والمسيحيين. واتخذت الحكومة التركية خطوات عاجلة لتوطين كل من المهاجرين والقبائل الكردية الرحل وإسكانهم بصفة دائمة في أماكن ثابتة ونجحت في توطين عدد كبير منهم فعلاً في المزارع الجماعية خاصة في الأراضي (الميري).

ولقد كان إيواء القبائل الكردية الرحل موضع اهتمام كبير للفلاحين وسكان المدن خاصة الفلاحين الأرمن المسالمين.

وفي أواخر القرن التاسع عشر كان كبير أساقفة الأرمن في دياربكر يرعى بنفسه شؤون الأكراد القادمين حديثاً واللاجئين وعلمهم كيف يصنعون المحاريث وغيرها من الأدوات الزراعية ويبذرون البذور في حقولهم وكان يبارك محاصليهم.

ورسخت الزراعة في ذهن الفلاح عادات ثابتة منظمة فهي تثبت أقدامه في الأرض التي يعيش عليها. وما هي إلاّ مقدمة للشعور الوطني والولاء للوطن وهي تجتث أسباب الثورات والخروج على القانون من جذورها. ثانياً تحل مهنة الزراعة المشكلة الاقتصادية فالإنسان بطبيعته ليس حيواناً متعطشا للدماء. بل الظروف هي التي تجعل منه ذلك.

وكانت الخطوة الثانية نحو التوطين الاقتصادي للقبائل الكردية هي تزويد شبابها

بالمهنة المريحة المناسبة وهي بالطبع مهنة الجندية.

تجنيد الشباب الكردي في الجيش

أجريت تغييرات كبيرة في الجيش التركي. فقد انقلبت الأوضاع بحل الفرق الانكشارية وإحلال جيش منظم مدرب(محلها). كذلك استبعد شباب الأكراد ولو لفترة قصيرة من هذه المهنة الشريفة التي تعتبر أصلح وأليق مهنة بالنسبة إليهم.

وفي سنة ١٨٩٠ أدرك السلطان عبدالحميد أسباب الاضطرابات الكردية فبدأ ينظم القبائل الشمالية في فرق خفيفة من الخيالة لتكون بمثابة جيش غير نظامي تابع للجيش التركي وقد منح السلطان شرفا خاصاً لفرق الخيالة هذه بإطلاقه عليها اسمه الخاص "الفرق الحميدية" عليها. وتم تجنيد ستة وسبعين فرقة تضم كل واحدة منها أربعمائة فارس. وكان على رأس كل فرقة أحد زعماء القبائل الأكراد أنفسهم وزودها السلطان بأسرع الخيل وأحدث المعدات والأسلحة وقد دربت هذه الفرق أحسن تدريب تحت إشراف المارشال فون دير جولتز الضابط الألماني الذي أعاره قيصر ألمانيا لتركيا ووضعت تحت قيادة الجيش العثماني الرابع ومقره أرضنجان.

ولفرق الخيالة الكردية هذه سجل حافل في تاريخ الجيش التركي. فقد أعادت الخيالة الحميدية أمجاد الأكراد العسكرية وشهرتهم العريقة في فن القتال خلال حرب اليونان ١٨٩٧ خاصة في شسيلي وضد الثوار البلغار وكان الغرض الرئيسي لهذه الاجراءات هو تحسين الأوضاع الاقتصادية للقبائل الكردية ولكن للأسف طابق عصرها عصر الثورات الداخلية في الامبراطورية التركية.

ولنتكلم الآن عن ثورة من الثورات التي لابد أن تقع في أعقاب فترة طويلة من سوء الإدارة وفساد الزعماء وعدم إخلاصهم في أي حكومة أو دولة.

ثورة الشباب الأتراك

أصبح الجهاز الإداري في الامبراطورية التركية الذي لم يطرأ عليه أي تغيير خلال خمسة قرون قديماً بالياً. وبمرور هذه المدة الطويلة نسي الشعب والحكام روح القوانين والأحكام وتمسكوا فقط بظاهرها وشكلها. أضف إلى ذلك ازدياد الركود والفساد والفوضى والانحلال وأصبحت أوروبا فجأة عاملاً قوياً في السياسة العالمية.

ومما يدعو إلى الأسف أنّه في الوقت الذي كانت الدول الشرقية خاصة الامبراطورية

التركية في سبات عميق كانت دول أوروبا قد تغلبت على قوى الطبيعة. ولقد صدم شباب الدولة بالهزائم المتلاحقة التي حلّت بالجيوش التركية في اليونان وفي الجبهة الروسية وفي بلغاريا والمجر بل حتى على أيدي الايطاليين.

وفي يونيو ١٩٠٨ وقع كل من الملك إدوارد السابع والقيصر نيقولا الثاني على التحالف الذي عقدته بريطانيا وروسيا بموجب معاهدة أغسطس ١٩٠٧.

وبات منتظراً في تركيا أن توضع الخطط لتقسيم الامبراطورية وازداد القلق بين الضباط من هذا الخطر المتزايد الذي يهدد حياتهم فقام شباب الأتراك بحركة التحرير بزعامة طلعت بك. وأصبحت هذه الحركة علنية تدريجياً بعد أن كانت سرية وسميت هذه الحركة باسم "الاتحاد والترقي".

وسرعان ما ضمت حركة الاتحاد والترقي هذه أعضاء أكثر حيوية ونشاطا من بين ضباط الجيش الشباب. وكان من بينهم أنور بك الذي شغل منصب ملحق عسكري في برلين فألمّ إلماما واسعا بتنظيما الجيش الألماني وتخطيطاته. ثم انضم إليه ضابط قدير آخر هو الكولونيل نيازي الذي حاز على خبرة واسعة في حرب العصابات ضد المقدونيين. ودبّر هذان الضابطان الوطنيان النشيطان انقلاباً عسكرياً لم يكتب له النجاح للأسف، لعدم قيامه في الوقت المناسب. ففر الكولونيل نيازي مع عدد من زملائه إلى جبال رسنا حيث أيّده قائممقامها سرا. ثم انضم إليه فيما بعد أيوب أفندي، السياسي الكبير، في أورخريدا ومن هناك بعثا كلاهما برسالة إلى السلطان يطلبان فيها إعادة الدستور. كذلك غادر أنور باشا سالونيك واستمر في بذل نشاطه من أجل "الاتحاد والترقي".

وعندئذ أصبح زعماء الاتحاد والترقي واثقين جدا من نجاح الثورة وأعلنوا الدستور في مونستر في ٢١ يوليو ١٩٠٨ وفي سالونيك في اليوم التالي وفي نفس الشهر زحفوا على إستنبول وأرغموا السلطان على الاعتراف بالدستور وتعيين من أرادوا من الوزراء. وافتتح البرلمان التركي في ١٧ ديسمبر ١٩٠٨.

ومن أهم مزايا هذه الثورة أن انبعثت في تركيا فكرة القومية التي كانت وليدة الثورة الفرنسية والثورة الصناعية والرومانيكية الألمانية في أوروبا. ولا عجب أن بدأ هذا الشعور ينتشر بين الطوائف والشعوب الأخرى داخل الامبراطورية التركية الواسعة الأطراف والمتعددة الأجناس فقد كانت الامبراطورية التركية آنئذ تشتمل على عدة

شعوب. كانت الامبراطورية التركية تضم العرب والأكراد والأرمن واليهود وغيرهم من الشعوب الصغيرة. وكانت كل هذه الطوائف مرتبطة بعضها ببعض برباط الدولة الواحدة. عقيدة الدولة العثمانية التي تشمل جميع المواطنين بغض النظر عن اختلاف الأديان أو العناصر أو اللغات.

أما وقد تخلى الأتراك عن عقيدة "الدولة المتعددة القوميات" فإنّ الميول الانفصالية بين العناصر غير التركية لم يكن منها بد.

ولتكن هذه الحقيقة التاريخية موعظة للذين لايزالون واقعين تحت تأثير الفكرة الأوروبية التي تدعو إلى القومية المبنية على عوامل رئيسية ثلاثة وهي الحدود الجغرافية واللغة والعنصر.

ولعل باكستان هي أول تجربة عظمى في العصر الحديث لنجاح فكرة القومية الإسلامية حيث يعد أقوام متعددة الأجناس يتكلمون عدة لغات في جناحين متباعدين تفصل بينهما مسافة تزيد على ألف ميل وهم لايزالون يكونون دولة واحدة وأمة واحدة. وقد تواجهنا مشكلة اللغة التي لم تسو مشكلتها بعد، وفي رأيي أن اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي يمكنها المحافظة على الوحدة بين الجناحين.

ولكن فلنرجع مرة أخرى إلى الكلام عن آثار النهضة الوطنية التركية على الشعب الكردي. كان للنهضة الوطنية التركية صدى قوي بين الأكراد الذين قاموا بحركة قومية مشابهة. وبدأت نواة القومية التي وضعت من قبل في قلوب بعض الأغوات الأكراد تنمو وتكبر. وبدأ ظهور هذه القومية بصدور جريدة كردية اسمها "كردستان" ومما يدعو إلى الدهشة أن كردستان التي كانت يرأس تحريرها الأمير مدحت بدرخان قد بدأت تصدر في مصر أولاً ثم صدرت فيما بعد بجنيف باللغة الفرنسية كمجلة شهرية وكان هدفها واضحاً جداً.

الحرب العالمية الأولى

عندما نشبت الحرب العالمية الأولى وقفت تركيا في صف ألمانيا. فقد كانت تأمل بمساعدتها أن تحطم الحصار القوي الذي فرضته حولها كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا. ولقد قاتل الأتراك في تلك الحرب ببسالة نادرة. وأظهر مصطفى كمال في دفاعه عن الدردنيل مقدرة حربية فائقة.

وفي العراق تقهقرت الحملة الإنجليزية– الهندية بقيادة الجنرال تاونسند بعد أن طوقها الأتراك. فقد صد الأتراك هجوما شنه جيش الإنقاذ البريطاني وحاصروا فرقة الجنرال تاونسند في كوت– العمارة وهزموه في ٢٩ إبريل ١٩١٦م.

وفي الشمال هاجمت روسيا تركيا وأخذ جيش روسيا القوقازي يدمر القرى الكردية والأرمنية حتى حولها إلى صحراء جرداء ومع ذلك كان القوقاز هو القطاع الوحيد الذي أحرزت فيه الجيوش التركية انتصارات باهرة. فمنذ شهر يوليو ١٩١٦ أخذت الجيوش التركية المكونة غالباً من فرق الخيالة الكردية إحراز النصر تلو النصر وقبل مايو ١٩١٨ كانت قد تقدمت إلى الأمام حتى باطوم وباكو مركز النفط الروسي.

خرجت تركيا من الحرب في أكتوبر ١٩١٨ وفي ذلك الوقت كان مستقبل الأوضاع في البلدان العربية قد تقرر بصورة نهائية. كما استفحلت المشكلة الكردية إلى درجة وصولها إلى المستوى الدولي.

ومن العوامل التي ساعدت على قيام الأكراد بالاضطرابات في فترة ما بعد الحرب اكتشاف النفط في الأراضي الكردية.

٣– إكتشاف النفط في الأراضي الكردية

وجد النفط في هذا الجزء من العالم منذ عهد سحيق من القدم وفي ١٩٠١ حصل ويليام داركاي الأسترالي على امتياز من شاه إيران للتنقيب عن النفط وأمكن اكتشاف أغنى حقول النفط في الأراضي الكردية. وفي نفس الوقت تقريباً بدأ الألمان أيضاً في التنقيب عن النفط. ونجحوا فعلاً في العثور على حقول النفط وتصادف مرة أخرى وجود النفط في الأراضي الكردية (الموصل وكركوك). وفي حوالي ١٩١٣ تكونت شركة تركية للنفط أدمجت المصالح البريطانية والألمانية في شركة واحدة. ولدى هزيمة تركيا ١٩١٨ كانت مشكلة توزيع مصالح النفط من أهم المشاكل العويصة وارتبط مستقبل ولاية الموصل التي تضم غالبية من السكان الأكراد بمسألة النفط. فقد كانت مدينة الموصل تسقط في أيدي الفرنسيين تارة وفي أيدي الأتراك تارة أخرى إلا أنها أصبحت في النهاية جزءاً من العراق.

كذلك ارتبطت دبلوماسية الدول الأجنبية خلال السنوات العشرة التالية والسيطرة السياسية والثورات والعمليات الحربية واغتيال الضباط البريطانيين على أيدي الأكراد،

ارتبطت كل هذه الأحداث بطريقة مباشرة بالإحتياطي الضخم من النفط الموجود في بلاد الأكراد. وحتى معاهدة سيفر (بين الحلفاء وتركيا) التي وقّعت في أغسطس ١٩٢٠ قد عقدت تحت تأثير عامل قوي وهو وجود النفط في البلاد الكردية.

ومنذ ذلك الوقت بدأت البحرية البريطانية تستخدم النفط بدلاً من الفحم كوقود لأساطيلها. وقد أدى هذا إلى جانب كثرة الطلب على البترول والمواد البترولية، إلى زيادة أهمية المناطق المنتجة للنفط. ولقد ضمنت المواد ٦٢، ٦٣، ٦٤ من معاهدة سيفر الاستقلال للأكراد والأرمن لذلك شجعت على قيام الحركات الإنفصالية الكردية والأرمنية.

أعطى الإنجليز للأغوات الأكراد أثناء المراحل الأولى لحملة العراق الوعود والعهود كي يثوروا ضد الحكم التركي وما أن وضعت الحرب أوزارها حتى أخذ هؤلاء الأغوات يطالبون الإنجليز بالايفاء بوعود الاستقلال. ومن بين هؤلاء الاغوات كان الشيخ محمود، آغا السليمانية.

الشيخ محمود وحركة التحرير الكردية

أجلي الأتراك عن ولاتي الموصل وكركوك (١٩١٩) بموجب شروط الصلح. ووضع لواء الموصل تحت الحكم البريطاني المباشر. أما لواء كركوك بمدنه الهامة الثلاث جمجمال والسليمانية وحلبجة فقد كان خارج النطاق إلا أنه يعتبر من أغنى المناطق بالنفط. فأرسل الإنجليز إلى هذا اللواء الميجر نويل أحد الضباط السياسيين الأكفاء ومعه التعاليم التالية:

زيجب أن تشرح لزعماء القبائل الذين تتصل بهم أننا لا ننوي فرض أي حكم أجنبي يخالف عاداتهم وتقاليدهم ويجب تشجيع زعماء القبائل على إنشاء اتحاد كونفدرالي للتسوية العامة، بتوجيه من الضباط السياسيين البريطانيين، والمطلوب منهم أن يواصلوا دفع الضرائب المفروضة عليهم بموجب القانون التركي مع بعض التعديلات اللازمة التي يرى ضرورة إجرائها، وذلك لأغراض تتصل بالمحافظة على النظام وتحسين أحوال الشعب".

(تعليمات من المندوب المدني العراقي إلى الميجر نويل)

وفي ديسمبر ١٩١٨ عين الشيخ محمود الزعيم الكردي الطموح حاكما على

السليمانية، كما عين غيره من الأكراد في مناصب أقل منه في جمجمال وبنجوين حلبجة إلا أنهم كانوا تحت إشراف الشيخ محمود المباشر. وكان الشيخ محمود طموحاً وداهية فسرعان ما جس نبض الضباط السياسيين وطلع على الإنجليز بالإعلان التالي:

زبما أن حكومة صاحب الجلالة قد أعلنت عن عزمها على تحرير الشعوب الشرقية من السيطرة التركية ومنحها المساعدات لتحقيق استقلالها، فإن زعماء القبائل بصفتهم ممثلين لشعب كردستان يلتمسون من الحكومة أن تقبلهم أيضاً تحت الحماية البريطانية وتلحقهم بالعراق حتى لا يحرموا من فوائد هذا الارتباط. وهم يطلبون من المندوب المدني للعراق أن يرسل إليهم ممثلاً لتقديم المساعدات اللازمة لتمكين الشعب الكردي تحت إشراف بريطاني من اللحاق بركب الحضارة والمدنية. وإذا قدمت الحكومة مساعداتها وحمايتها إليهم فإنهم على استعداد لإطاعة أوامرها وإرشاداتها.″

وطلب الشيخ محمود أيضاً تعيين الضباط الإنجليز لإدارة الأقاليم. وأصر على أن يكون الموظفون الصغار من الأكراد وليس من العرب. وفي مقابل ذلك اعتراف المندوب المدني للعراق بزعامته القانونية على القبائل الكردية من الزاب الكبير إلى ديالى. داخل الحدود الإقليمية للعراق. ورفضت القبائل وسكان المدن في لواءي كفري وكركوك قبول زعامة الشيخ محمود وكذلك أكراد الجانب الإيراني من الحدود.

ولكن الشيخ محمود كان طموحاً للغاية وكان يبغي أن تساعده الحكومة البريطانية على إنشاء دولة مستقلة لكردستان تتكون من جزء من تركيا وجزء كبير من إيران.

لقد كانت تقديرات الضباط الإنجليز في الإدارة المدنية بالعراق لفرص نجاح حركة الشيخ محمود الكردستانية تقديرات صحيحة، فقد كانوا على حق عندما قرروا عدم تقديم أي تأييد فعال لدعوى الشيخ محمود لزعامة أي عدد من القبائل، وبذلك عدلوا سياستهم في كردستان الجنوبية بجعل النظام الإداري على غرار النظام المتبع في الأماكن الأخرى من العراق.

ولم يكن هذا القرار الذي اتخذه الحاكم العام من تلقاء نفسه متمشيا مع سياسة لندن. وقد جاء فيه إننا ″مكلفون بإنشاء كردستان جنوبية مستقلة تحت إشراف بريطانية ولكن نظرا لحالة البلاد غير النامية وقلة المواصلات وعدم تماسك القبائل اضطررنا إلى العمل من قواعد عدة ومحاولة إعادة النظام في بعض المراكز تاركين مهمة

التنسيق إلى المستقبل لعوامل جغرافية وتجارية.

وبات واضحاً أن كردستان الجنوبية لن تزدهر إلاّ إذا كانت جزءاً من العراق. فالأسواق الوحيدة التي يمكن التعامل معها هي في الموصل وبغداد، وطرق المواصلات الوحيدة تمر عبر العراق. وقد أدرك الكثير هذه الحقائق وكان بعض الزعماء الأكراد المستنيرين متفقين في أحاديثهم الخاصة على أنه لا يمكن تحقيق أي نوع من الحكم الذاتي للأكراد إلا داخل إطار دولة عربية مادامت تحت إشراف بريطانيا.

غير أن معظم الزعماء الأكراد لم يكونوا يستسيغون فكرة اتباع دولة عربية بصورة دائمة وكان أقلية منهم يرون أن الاستقلال معناه حرية الاعتداء على جيرانهم الضعفاء.

زلقد كان من الصعب القول في ذلك الوقت بوجود حركة وطنية وإلى أي مدى يمكنها الاستمرار وإلى أي حد يمكن أن تتأثر بمطامع الزعماء الأكراد الشخصية" (من كتاب العراق: لمن يكون الولاء) تأليف السير آرنولد ويلسون.

وفي نفس الوقت أوضحت الإدارة المدنية البريطانية للشيخ محمود إنها لا تنظر بعين الرضى إلى أي محاولة من جانبه لربط الأكراد المقيمين في إيران "بحركة كردستان الاستقلالية" ولم يستطع الشيخ محمود العنيد أن يفهم انه "من النادر الوفاء بالوعود التي تقدم زمن الحرب"، لذلك مضى في حركته "استقلال كردستان" وجمع حوالي ٣٠٠٠ مقاتل من المغاوير.

وفي مايو ١٩١٩ أعلن نفسه الحاكم الأعلى لكردستان كلها. وقاد فرقته الصغيرة المكونة من الخارجين على القانون المسلحين بالبنادق القديمة وبعض الأسلحة المسروقة من معسكرات الجيوش البريطانية الهندية وهاجم بلدة السليمانية واستولى على خزانتها ومقر القيادة. وكان قد قطع الخطوط التلغرافية المتصلة بكركوك وسد جميع منافذ المدينة حتى لم يعرف العالم كله أنباء هذا الانقلاب إلا بعد ٦٧ ساعة على وقوعه.

وفي هذه الأثناء كان ملك كردستان قد دعم مركزه ورفع أعلامه الخاصة "لكردستان المستقلة" ونصب أتباعه كموظفين في الإقليم بل وأصدر طوابع بريد خاصة به. ووصلت أولى أنباء هذه الثورة إلى العالم الخارجي بعد انقضاء ٨٠ ساعة عن طريق حلبجة وخانقين (إيران).

ولقد أحدث ذلك قلقاً كبيراً في بغداد فأرسلت حملة تأديبية على عجل من كركوك بدون تقدير لقوى الثوار أو تفكير في العواقب. وكانت النتيجة واضحة كل الوضوح. فقد وقع الطابور الزاحف مرتين في كمين نصبه الأكراد فقتل عدد كبير من الجنود. وأتلفت أربع سيارات مصفحة عندما دحرج الثوار قطعاً ضخمة من الصخور من فوق الجبال كما عطلت تسع عشرة سيارة حربية أخرى. وهكذا فشلت الحملة التأديبية في تحقيق النتائج المطلوبة.

وكان من نتيجة هذه الصدمة التي حلت ببغداد ولندن أن أصدرت الأوامر للفرقة الثامنة عشر المعسكرة في الموصل بأن تتولى العمليات وان تجهز حملة خاصة أطلق عليها اسم سحملة كردستان الجنوبية"، وتألفت من لواءين من المشاة ولواء من الفرسان وفرقة من السيارات المصفحة. وزودت الحملة هذه المرة بالمدافع الخاصة بحرب الجبال وقوات أخرى لأعمال الصيانة وغيرها. يؤازرها سرب من الطائرات.

وعين الجنرال فريزر قائداً على "حملة كردستان الجنوبية". وكانت النتائج هذه المرة مختلفة طبعاً، ففي أول اشتباك وقع مع الأكراد عند ممر بازيان بجبال قراداغ. على بعد ١٢ ميلاً غربي جمجمال حلت الهزيمة الساحقة بقوات الشيخ محمود. وهجمت الحملة هجوماً خاطفاً على السليمانية واستولت عليها واستسلم الشيخ محمود. الذي أصيب بجراح خطيرة وأحضر إلى بغداد حيث قدم للمحاكمة أمام محكمة عسكرية وحكم عليه بالإعدام ولكن أفرج عنه في آخر لحظة. ومات موتة طبيعية فيما بعد. وعوقبت القبائل التي أيدت الشيخ محمود في حكومة كردستان الحرة عقاباً صارماً، فأحرقت قراهم وحوكم المشتركون فيها ونفذت الأحكام الصادرة ضدهم فوراً. وبذلك عاد الأمن والنظام إلى نصابهما. وانتهت حركة "كردستان" الحرة الكبرى التي قام بها الشيخ محمود العنيد الذي لم يستطع أن يصدق أن اليد التي حثت على حركة كردستان وغذتها برفق في مهدها قد تحولت إلى يد قاسية لتبطش بها وبأصحابها بوحشية وضراوة.

وأود أن أبدي هذا بملاحظة شخصية حول الضباط البريطانيين في الإدارة المدنية بالعراق. فقد كانوا جميعاً من الضباط السابقين صغار السن، ومعظمهم كانوا تابعين للإدارة السياسية بحكومة الهند. وكانوا مليئين بالنشاط والحماس بما لم يسبق له مثيل في تاريخ بريطانيا. ولقد أتيحت لي الفرصة للتعرف عن كثب بأحد مشاهير رجال الإدارة المدنية في العراق عندما نزل في منطقة الحدود الشمالية الشرقية في

(باكستان) كزميل لوالدي الذي كان يشغل هو أيضاً منصباً في نفس الإدارة السياسية. وكنت آنذاك فتى صغيراً وكنت أنصت بشغف إلى حديث ذلك البطل عن مغامراته وما قام به من أعمال بطولية. ولكن كل هذه البطولات وإعجابي الشخصي لهؤلاء سالرجال العظام" لن يرغمني على أن أغمض عيني الآن عن الحقيقة الواقعة وهي أن هؤلاء سالرجال العظام" بتبنيهم قضايا الأقليات إنما قد بذروا، ولو عن غير قصد، بذور الفرقة والانقسام بين شعوب الشرق الأوسط كلها. كما أنني لست من المعجبين إعجاباً أعمى بالحكم العثماني إلا أن الميزة الكبرى التي امتاز بها الحكم التركي زهاء أربعة قرون الماضية هي عدم وقوع أي اضطهاد ضد أقلية دينية لكونها غير مسلمة.

إذا كان هدفنا هو تحقيق السلام للبشرية وتعبئة الغرائز المشاعة المفطورة على حب العراك في الإنسان من أجل قهر الكون وليس من أجل قتال بعضنا بعضاً على وجه هذا الكوكب، وإذا اتفقنا على أن معظم الحروب قد سببتها أضرار أصابت دولة بذاتها من الدول لا أكثر، فإننا لا نجد أمامنا أي حل سوى وضع حد للتكاثر غير الطبيعي لعدد الدول والقوميات الجديدة. فإذا فعلنا ذلك فإننا نقلل إلى أدنى حد من فرص وقوع اشتباكات جديدة تؤدي إلى نشوب حروب عالمية.

ثار الأكراد بعد تسع سنوات من السلام والهدوء في الأراضي الكردية وحاولوا مرة أخرى إنشاء دولة مستقلة لكردستان.

ثورة الشيخ سعيد (١٩٢٥)

إندلعت هذه الثورة في الجانب التركي من بلاد الأكراد وانحصرت فيها. وكانت أسبابها الرئيسية هي:

١- فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى، الدعاية من أجل كردستان المستقلة:

في السطور السابقة ذكرت أسباب حركة كردستان الاستقلالية وأصلها ومحاولة الاعتراف بها في وقت من الأوقات على المستوى الدولي. ولقد كانت ذكرى كل هذه الأحداث في أذهان الشعب الكردي. وكانت خيبة الأغوات الأكراد الطموحين وعدم تحقيق أحلامهم قد جعلتهم يشعرون بالغصة والمرارة فأخذوا يتحينون الفرصة لتحقيق آمالهم القديمة في نيل السلطان.

٢- سياسة الحكومة التركية العلمانية:

١- أرادت الدولة التركية الحديثة أن تصبح علمانية تماماً وأن تتخلص من المسؤوليات العديمة الفائدة الغير مرغوب فيها التي فرضها عليها نظام الخلافة العتيق البالي.

٢- كانت توجد أقليات دينية كبيرة من المسيحيين الأرمن واليهود. وقاست هذه الأقليات من البؤس في الماضي كلما استخدم الدين كأداة لبلوغ أي مرمى سياسي. كل هذه العوامل وغيرها أقنعت مصطفى كمال أتاتورك كي يجعل الدولة علمانية لادينية بإلغائه الأوقاف وإلغاء الامتيازات غير الضرورية التي كان يتمتع بها رجال الدين حتى ذلك الحين وأصبح معظم المساجد والمعاهد الدينية الأخرى نوادي لطبقة الفقراء.

٣- في فبراير ١٩٢٥ ألغي نظام الرئاسة الوراثي لمذهب النقشبندية الذي كان ذا نفوذ كبير بين الأكراد. وكان معظم رجال الدين في كردستان ينتمون إلى المذهب النقشبندي السني. وكان هذا الإلغاء إيذانا بالثورة. فقبل نهاية شهر فبراير ١٩٢٥ اندلعت الثورة بين الأكراد الذين يعيشون في الجانب التركي. وكانت الصلة القوية للشيخ سعيد بالأغوات الأكراد مشجعة لجميع القبائل الكردية تقريباً على الثورة ضد تركيا. ففي مدة قصيرة أصبحت الولايات الشرقية الثلاث عشرة التي يكون الأكراد غالبية سكانها في حالة ثورة وطالب الثوار بإعادة الخلافة والسلطان سليم ابن السلطان عبدالحميد بالإضافة إلى إلغاء الأحكام والقوانين التي جعلت من تركيا دولة علمانية. لقد كانت هذه الثورة الكردية في الواقع هي آخر محاولة من جانب الرجعيين لوقف تيار النهضة السريعة التي حققتها تركيا الحديثة. لقد كانت آخر نفس لفظه العهد المباد.

وبعد أن جمع الأكراد أسلحة كافية وكونوا جيشاً قوياً غير نظامي شنوا الهجوم على دياربكر التي سقطت في أيديهم في ٧ مارس ١٩٢٥. وفي هذه الأثناء كانت الحكومة قد جهزت حملة تأديبية استطاعت في خلال يومين أن تستعيد مدينة دياربكر وهزمت الثوار الأكراد في معركتين حاميتين. وقبض على الشيخ سعيد مع أعوانه ونفذ فيهم حكم الإعدام وبهذا عاد النظام والأمن إلى نصابه في البلاد الكردية.

ثورة ١٩٢٩

أثير الرماد الذي خلفه إخماد الثورة مرةً أخرى في ١٩٢٩ نتيجة للنشاط الذي كان يقوم به عملاء أعداء تركيا. ففي عام ١٩٢٩ اندلعت ثورة أخرى بين الأكراد في منطقة أرارات وبحيرة فان. وأعقب تلك الثورة وقوع مذابح ضد المسيحيين الأرمن الذين تعهدت الحكومة التركية العلمانية بحمايتهم. وكان الذين تسببوا في وقوعها أتباع حركة الشيخ سعيد الرجعية والشباب المثقف حديثاً الذين أفسدتهم الدعاية الأجنبية. وأخمدت الثورة بيد من حديد واتخذت الحكومة التركية إجراءات صارمة جداً لمنع تكرار مثل هذه الحوادث المشينة.

وبعد ذلك نأتي إلى فترة هي من التاريخ المعاصر. وكما قلت من قبل إنّ الغرض من كتابي هذا هو أن يكون "كتاب تاريخ" وليس "رسالة سياسية" فإذا كان هذا هو هدفي يجب عليّ أن أتردد في سرد أحداث لا تعتبر قديمة حتى تذكر في كتاب للتاريخ. وهذا لا يعني عدم وقوع أحداث ذات قيمة تاريخية خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية. وفي الواقع يمكنني أن أكتب بالتفصيل عن ثورة الملا مصطفى البرزاني في العراق وغيرها من الثورات الكردية التي نشبت بين ١٩٤٥–١٩٤٩ في مهاباد ورزايا (بإيران).

ففي تلك الفترة كنت موجوداً في ذلك الجزء من العالم وساهمت بنصيب فعلاً، إلى حد ما، في الاجراءات التي اتخذت للقضاء عليها. وبما أن هذه الأحداث لاتزال حديثة العهد وأن كل ما أكتبه عن الشؤون الحاضرة سيكون له صلة بالسياسة وتمنعني تقاليد خدمتي العسكرية من التحدث في السياسة أرى اني يجب أن أتوقف هنا وأترك الموضوع للأجيال القادمة كي تحكم على أفعالنا وتعلق عليها بعد مماتنا.

الفصل السابع

القبائل الكردية - خارطة الأكراد القبائلية

تعتبر خارطة الأكراد القبائلية معقدة مثل المشكلة الكردية نفسها. فالشعب الكردي رغم قدم تاريخه لايزال في حالة التطور من مرحلة الأسرة إلى مرحلة القبيلة. ومن العوامل التي تساعد على تكاثر عدد البطون والأفخاد القبلية طبيعة البلاد الكردية الطوبوغرافية. فالبلاد التي يعيش فيها الأكراد جبلية ذات جبال شاهقة العلو تتخللها وديان شديدة الغور، فوعورة الأراضي هذه ساعدت على نشأة قرى صغيرة متفرقة وقللت من الاتصال بين مختلف القبائل.

ثانياً حتّمت متطلبات الأكراد المهنية وهي متطلبات الرعي والزراعة وكذلك الميل إلى الهجرة والارتحال، حتمت على الجماعات أن تظل متألفة من أسرة كبيرة واحدة وبعض أصحاب الحرف والخدم التابعين لها. وتحولت هذه الأسرة الكبيرة فيما بعد إلى عشيرة سهلة التنظيم والانقياد تحت زعامة واحدة متنقلة بسهولة حاملة خيامها طلباً للمراعي.

وكان رب الأسرة وهو دائماً يكون أكبر أفرادها يسمى الآغا أو البك. ويرجع اسم القبيلة أو العشيرة في أصله إلى اسم أحد الأجداد القدامى الصالحين المتدينين أو قائد حربي مغوار أو زعيم قدير، دافع عن رجاله بشجاعة لصد هجوم من الأعداء. فلا عجب إذن أن زاد عدد القبائل الكردية وبطونها إلى عدة الآلاف. ومع أن كل واحدة منها تسمي نفسها قبيلة أو عشيرة إلا أن أفرادها في الواقع يعنون بذلك اسم تلك الأسرة بالذات التي ينتمون إليها ويعتبرونها قبيلة لا أسرة.

وفي أثناء تجوالي وجوسي داخل الأراضي الكردية واجهت مشكلة كبيرة وهي مسألة إعداد مرجع عن القبائل الكردية. ولم أتمكن من الكتابة بالتفصيل إلا عن عدد قليل من القبائل الكردية التي تعيش في العراق وإيران وسوريا وتركيا وذلك قد يرجع إلى عدم اتمامي البحث في الموضوع أو إلى عدم مكوثي هناك مدة كافية.

إن غايتي من هذا الكتاب هي التحدث عن الأكراد وبلادهم ودراسة أحوالهم لهدف تحقيق الوحدة الإسلامية لا زيادة الفرقة والانقسام بين مسلمي العالم المنقسمين على

أنفسهم فعلاً. ومع كون الوحدة هي غايتي فإنه من المحتمل أنني لم ألق بالاً (بدون قصد) لبعض القبائل الكردية القليلة الأهمية وإني أعتذر عن ذلك قبل البدء في الموضوع. وخطتي هي أن أتناول إحدى القبائل الكردية الهامة في كل قطر بالوصف والتحليل. ومن جهة تخيرت بعض المناطق المعينة التي تمتاز من النواحي الاستراتيجية والاقتصادية، ووصفت حياة الأكراد فيها وصفاً مسهباً. وفي نهاية هذا الفصل أضفت شيئاً عن اليزيديين الذين يمتزجون جداً بالأكراد في جبال العراق وسوريا ويكثر وجود اليزيديين في بلدة سنجار وما حولها، وهي بلدة جميلة واقعة على منحدرات جبل سنجار غربي الموصل. ويتسم اليزيديون بالشجاعة والجمال. ونساؤهم من أجمل نساء العالم ذوات أجساد ممشوقة وقامات رشيقة. واليزيديون يشبهون الأكراد كثيراً من الناحية العنصرية. وحتى عاداتهم وتقاليدهم تشبه عادات وتقاليد الأكراد.

وفي العراق. يحتل اليزيديون مكانة مرموقة فكثير منهم كانوا مجندين في السلاح الجوي الملكي. وكانوا يكونون قوة نظامية يشرف عليها البريطانيون لتدافع عن مصالحهم الحربية في قاعدتي الشاهبة والحبانية. وحتى عهد قريب كان اليزيديون شعباً متأخرا ولكنهم بدأوا يتقدمون للحاق بركب المدنية بالاستفادة من التعليم وباستخدامهم وباستخدام أجهزة الراديو وقراءة الجرائد وغيرها من مظاهر المدنية الحديثة وكذلك بفضل سياسة الحكومة العراقية المستنيرة فبلغوا بذلك ما يحتلونه من مكانة مرموقة في البلاد الكردية.

الأكراد (المهرانيون)

يعتبر الأكراد الملّيون (المهرانيون) أكبر القبائل الكردية وأكثرها انتشاراً. والمليون مثل غيرهم من القبائل الكردية من الإيرانيين والأتراك والعرب مع تغلب العنصرين التركي والإيراني، وينحدر أصلهم من المهرانيين وهم بطن من بطون قبيلة الجيتو القديمة. وهم مسلمون سنيون ولو أن بعضهم يدينون بالمذهب اليزيدي وبعضهم الآخر يدينون بالمسيحية.

وسوف أتحدث في نهاية هذا الفصل عن اليزيديين الذين يشبهون الأكراد شبهاً كبيراً ويعيشون بين ظهرانيهم وتمتد رقعة الأراضي التي يعيش فيها الأكراد الملّيون من شمال سوريا عبر نهر الفرات وتمتد شمالاً حتى نهاية خط السكك الحديدية التركية في

دياربكر ثم إلى نصيبين وتمتد شرقاً حتى ضفاف نهر دجلة. ويلائم السهل المنبسط الذي يندر فيه وجود الأشجار أمزجة الأكراد المليين وتقاليدهم لأنه يصلح للحياة البدوية والحياة الزراعية المستقرة على حد سواء.

ويتكلم الملّيون اللغة الكرمانجية ولكنها تختلف عن لهجة أكراد الموصل وكركوك إذ أنهم يتكلمونها بلهجة تغلب عليها الألفاظ الفارسية والتركية أكثر من العربية. فاختلافها عن اللغة الكرمانجية الأساسية مثل اختلاف لهجة البشتو التي تتكلمها قبيلة يوسف زاي الباثانية عن لهجة قبائل أفريدي أو وزيري الباثانية في باكستان.

وهم من ناحية طرق المعيشة ووسائلها أقرب إلى الأتراك. وأكثر ثقافة وتهذيباً وأقل سذاجة وبداوة من القبائل الكردية الأخرى. ويعتبر الأكراد الملّيون على الأرجح من القبائل الرحل مع أن بعض بطونهم قد استقرت في قرى تتوسطها قلعة تحوطها بيوت صغيرة وأكواخ من الطين تشبه كثيراً الأكواخ التي نراها في منطقة الحدود الشمالية الغربية بباكستان.

إنّ الملّيين (المهرانيين الرحل) شعب عظيم لايزال محتفظاً بعادته القديمة وهي الهبوط من الجبال والارتحال جنوباً خلال فصل الشتاء مع مالهم –أي ماشيتهم– كما يفعل قبائل غيلزاي على الحدود الباكستانية الأفغانية وهم ينسجون خيامهم المصنوعة من شعر الماعز أو وبر الجمال نسيجاً دقيقاً حتى لا تسمح بتخلل مياه الأمطار أو أشعة الشمس إلى داخل الخيمة التي تقوم على صفين من الأعمدة. كما تركز جوانبها على دعامات قصيرة حتى يمكن للأشخاص أن يقفوا داخلها. ويزين داخل الخيمة بالسجاد الجميل ذي الشراريب المدلاة.

ويقوم نظام الأكراد الملّيين القبلي مثال القبائل البدائية على رب الأسرة. وتقسم القبيلة إلى اثنتي عشرة مجموعة رئيسية وكل منها تنقسم إلى عشائر أو أسر كبيرة وتنتقل زعامة العشيرة بالوراثة. ويقوم كبار أفراد الأسرة سناً باختيار الآغا الذي يتصف بالزعامة العليا. ويبت في قضايا المنازعات مجلس مكون من رؤساء العشائر ومشايخها.

ولايزال الملّيون (المهرانيون) يذكرون ويمجدون بطلهم العظيم إبراهيم باشا فقد وحَّد قبيلتهم الصغيرة تحت زعامته في نهاية القرن الماضي. وتقول الأسطورة إنّ إبراهيم باشا قد حقق الرخاء والوحدة والمجد للأكراد الملّيين. وكان يعيش في أبهة

وعظمة. فقد كانت خيمته مقامة على أربعين عموداً وعلقت في أسنارها اللوحات المطرزة الزاهية وأثثت بأفخر الرياش وأثمن السجاد وكان يتنقل برفقة حاشية ضخمة وحرس مكون من مائة وعشرين فارساً. وخلع السلطان عبدالحميد رتبة الباشوية على إبراهيم باشا وعينه حاكماً على المناطق التي يعيش فيها الأكراد الملّيون. كما منح السلطان أيضاً الأكراد الملّيين عامة وإبراهيم باشا خاصة بعض الامتيازات المعينة فيما يتعلق بالضرائب والإدارة المحلية وحق تكوين جيش محلي غير نظامي.

وتمتع المليون بنصيب وافر من الحكم الذاتي في عهد السلطان عبدالحميد وقرب نهاية عهده جنَّدهم السلطان في فرقة غير نظامية تولى زعماؤهم قيادتها بأنفسهم وسميت هذه الفرقة باسم الفرقة "الحميدية" وكانت بمثابة حرس السلطان الخاص والغرض منه حمايته ضد أي ثورة يقوم بها شعبه كما ذكرنا في الفصل السابق. وقد رحب الزعيم الكبير إبراهيم باشا بتكوين فرقة الحميدية. وفي الواقع كان هذا في صالحه، إذ أتيح له أن يسيطر على قوات منظمة يقودها ضباط معظمهم من أقاربه وأتباعه. كما ثبت نفوذه داخل قبيلته نفسها، فقد كانت له السلطة الكاملة لاستدعاء العسكر. وبقيت منطقته حصينة غير منتهكة. إذ لم يجرؤ جباة الضرائب ولا الجنود على تعريض أنفسهم في السهول الواسعة. وبنى عاصمة لمملكته الصغيرة في فيرانشهر حيث أسكن مستوطنين من العرب والأرمن. فإلى جانب رجل الدين العربي أنشئت في مدينة فيرانشهر الجديدة كنيسة أرمنية عليها أسقف. وتمتعت فيرانشهر خلال عهد إبراهيم باشا بالازدهار بما لم يسبق له مثيل في تاريخها.

وبعد وفاة إبراهيم باشا لم يثبت خلفه جدارته بمنصبه ولهذا فقد الملّيون زعيماً عظيماً حقق لهم المجد والوحدة ورفع اسمهم عالياً ومما أدى إلى زيادة التفكك بين الملّيين ظهور حركة (الشبان الأتراك) خاصة بعد عزل السلطان عبدالحميد على يد مصطفى كمال أتاتورك.

وعقب الحرب العالمية الأولى كان مصير الملّيين معلقاً في كفة القدر لفترة قصيرة ولكن عندما خططت دولة سوريا الحالية ووضعت تحت الانتداب الفرنسي وجد الأكراد الملّيون أنفسهم موزعين على دولتين مستقلتين هما سوريا وتركيا. ومنذ ذلك الحين وهم يطيعون القانون ولا يقومون بأي شغب سواء في سوريا أو في تركيا.

وسأتحدث الآن عن قبيلة كردية أخرى تحتل منطقة أكثر أهمية وأوسع مساحة من

الملّيين وتتمتع بمكانة مرموقة بين الشعب الإيراني.

الأكراد الغورانيون

تقطن هذه القبيلة الكردية المشهورة سهول إيران الغربية والجنوبية الغربية. ويزداد عددهم في كرمانشاه وحولها وهي من أشهر مدن غربي إيران. ويعني لفظ "غوران" في اللغة المحلية سكان الجبال. أو "غور" وتعني جبل. واستنادا إلى كتاب الشرفنامة (وهو من أهم الكتب التي أُلّفت عن القبائل الكردية) فإنّ الملك غوناريزين غيو، هو الذي أسس قبيلة الغورانيين. ويقال أن بهمان قد بعث روهان ابن غوتاريز بن غيو لتدمير أورشليم وأسر اليهود وسبيهم ويشار إلى روهان هذا في عدة أماكن باسم بختنصر. واستناداً للكتاب إياه إنّ البلاد الواقعة حول تخت شيرين وكرمانشاه قد ظلت منذ عهد روهان في أيدي خلفاء غوتاريز بن غيو ويطلق على أهلها الآن اسم الأكراد الغورانيين ولا يزال اسم الملك غوتاريز بن غيو ولقبه محفوظاً في نقش موجود في بايساطون بالقرب من كرمانشاه في الجنوب الغربي من إيران.

وقد ذكر في كتاب "مسالك الأبصار" وهو كتاب آخر من الكتب القديمة ذات الأهمية التاريخية الكبرى، أن قبيلة الغورانيين كانت مسيطرة على منطقة كردستان الجنوبية في القرن الرابع عشر وتمتد هذه المنطقة من حدود همدان إلى شارزور. لذلك يمكننا الجزم بأن الغورانيين كانوا في وقت من الأوقات يحتلون قسماً كبيراً من الجنوب الغربي الإيراني. وحتى الآن يُكون الغورانيون غالبية السكان على طول الحدود الجنوبية الغربية لإيران وحول خانقين.

ويعتبر الغورانيون شعباً نشيطاً جداً محباً للمخترعات والآلات. ويمتازون بقصر القامة وسمرة البشرة إلاّ أنهم أقوياء الأبدان سليمو البنية. ويعيشون على الزراعة وتربية الأغنام ويحصلون منها على أجود أنواع الصوف. ومن السلع التي تجلب لهم أرباحا طائلة الرمان والعنب والألبان ومنتجاتها. ويشتهر الغورانيون بالشجاعة والذكاء والإخلاص لدولتهم ويتراوح عددهم بين ٤٠٠ و٥٠٠ ألف نسمة وتزداد أهمية المنطقة التي يقطن فيها الغورانيون بوجود أغنى حقول النفط الإيرانية فيها.

أكراد جرجيرايا

يعيش أكراد جرجيرايا غالباً على الحدود التركية العراقية ويقع الجزء الأكبر من بلادهم داخل المنطقة الجنوبية الشرقية من تركيا. ويعيشون حياة شبه بدوية. فيزرعون أراضيهم في الموسم المناسب ويتنقلون من مرعى إلى آخر بماشيتهم ويعتمدون على الموصل ونصيبين وجزيرة ابن عمر في بيع محاصيلهم الزراعية وشراء ملابسهم وغيرها من ضرورات الحياة. ويتراوح عدد الأكراد الجرجيريين بين عشرة واثني عشر ألفاً. وبلادهم غنية بالمياه وتنتج أجود أنواع القمح والأرز والشعير إلى جانب الفواكه والخضروات. وهم يقايضون الصوف بالأقمشة والمنتجات الزراعية ومنتجات الألبان.

والأكراد الجرجيريون مثال الرجولة وهم طوال القامة جميلو الصورة يتسمون بالحزم والخشونة كما أنهم كرماء وهم من ناحية الطبع سريعو الغضب ولكن يمكن السيطرة عليهم بسهولة بعد انتهاء ثورة غضبهم. ويتصل نسبهم بالعرب ولكنهم يدعون أنفسهم أكرادا خلصاً. ويقال أن سليمان آغا قد نقل هذه القبيلة من السليمانية منذ ١٥٠ سنة.

عشيرة بتوان

هي قبيلة صغيرة جدا تعيش شمال الموصل وعلى المنحدرات الشمالية الشرقية من جبل جودي "وهم يعتمدون في معيشتهم على الزراعة والرعي".

قبيلة حسينان

وبعكس الجرجيريين تنتمي قبيلة حسينان إلى عنصر كردي أصيل ولكنها استعربت تماماً خلال المائتي سنة الماضية. وهم يقيمون حول الموصل ولا يزيد عددهم عن عدة آلاف وهم في الواقع فرع بعيد من فروع اليزيديين وأكراد حسينان مزارعون مستقرون ويزرعون القمح والشعير والذرة.

ومن القبائل الكردية الصغيرة الأخرى في منطقة الموصل قبائل غولي وسندي وحجام في زاخو. وقبائل مزوري ودوسكي وشواخان في دهوك على الحدود التركية العراقية وقبائل سورتش وكيزاي وزوكري وهيركي في عقرة. وقبائل نيرو اوريغة

وبرواري بالا وسابنا في عمادية. ومعظم هذه القبائل رحل ولو أن بعض قبائل زاخو ودهوك تملك أراضي تزرعها بالقمح والأرز والشعير.

قبائل جاف الإيرانية

يقطن أكراد جاف الجهات الشرقية والشمالي للحدود العراقية الإيرانية وتعتبر هذه العشيرة أقل القبائل الكردية إطاعة للقانون وهي تعتمد كلية على الرعي في معيشتها ويبلغ عدد قبيلة الجاف على أقل تقدير ٦ آلاف نسمة وهم يعيشون بالقرب من كفري وجمجمال وحديجا في العراق وتمتد مناطقهم عشرة أميال أخرى داخل حدود إيران.

ومن القبائل الصغيرة الأخرى في هذه المنطقة قبائل طالباني وزنجينه وشوان واكرجا قبيلة برزان الشهيرة التي تقطن قرب كركوك. ولقد احتل الأكراد البرزانيون أهمية كبيرة منذ ثورة الملا مصطفى البرزاني ١٩٤٦–١٩٤٧ ومعظم البرزانيين من السادة وهم أكثر القبائل الكردية ثقافة وعلماً.

أكراد كاكاي

وتسكن المنطقة القريبة من كركوك والسليمانية قبيلة هامة أخرى هي قبيلة كاكاي. يتبع الكاكائيون المذهب الشيعي. وهم أقرب من الناحية العنصرية إلى الكزلباشيين منهم إلى الأكراد. فهم كثيرو الاختلاط للكزلباشيين كما يتزاوجون معهم. ويعتقد البعض أن أكراد كاكاي هم بطن من بطون قبيلة كزلباش التي تقطن بلاد الأكراد. ويتكلمون إحدى اللهجات الكرمانجية ويتراوح عددهم بين تسعة وعشرة آلاف نسمة والزراعة هي مهنتهم الرئيسية.

أكراد خوشناو

ويسكن أكراد خوشناو في المنطقة الغربية من أربيل وفي مصيف شقلاوة الجميل. ويمتازون بجمال الصورة وقوة البنية وسرعة البديهة. وهم مغرمون جداً بالحياة العسكرية. وأكراد خوشناو متقدمون نسبياً على باقي الأكراد فهم أكثرهم علماً وثقافة وغنى. وهم يعيشون غالباً على الزراعة والأعمال الحرة كما أنهم مثل باقي القبائل الكردية يجندون في الجيش والبوليس ويحتلون الوظائف المدنية سواء في العراق أو في إيران. ويبلغ عددهم حوالي ٣٠ ألف نسمة.

أكراد بيشدر وهورمان

وتقطن في لواء السليمانية بشمالي العراق عشيرة كردية تسمى البيشدر. وهي من أكبر العشائر. ويقطن معظم أفرادها في إيران حيث يمتزجون بعشيرتي هماوند وهورمان. وغالبيتهم رحل لأن بلادهم مجدبة فيما عدا أجراء صغيرة من الحقول الخضراء التي ترويها العيون الجوفية والجداول النابعة من الجبال.

ويقطن حول مدينة رواندوز الشهيرة في شمال العراق أكراد زيباري ومنجور. وهم ذوو نفوذ وسطوة كبيرة وقد أنجبوا كثيراً من مشاهير ضباط الجيش ورجال الحكومة المدنيين. ويتسمون بالكرم البالغ والثقافة العالية.

وبالقرب من مدينة رواندوز تقع مدينة أربيل مهد الحضارة الكردية القديمة حيث يعيش قبيلة ديزين وبطونها ماماسيني وسيان واغاكاكي خان وشرواني. كما توجد بالقرب من أربيل بعض جيوب لقبائل خوشناو وغوري وشيخان واكو وشيلانا وشالا بيجي ونودشت ومنجور وبالك وشورش إلى جانب قبائل زايبري وكازوري وهركي الشهيرة.

أكراد هماوند

يقيم أكراد هماوند في الأطراف الغربية من إيران بالقرب من الحدود الإيرانية– العراقية. وهم في الغالب رحل وأهم المدن التي يعتمدون عليها في التجارة والتسويق مهاباد ورزايا بغرب إيران. وتمتد هذه المنطقة حتى بلدة خانة الواقعة على الحدود الإيرانية – العراقية ويقدر عددهم بحوالي ١٥ ألف نسمة.

جنوب غربي إيران

كما ذكرت من قبل يعتبر الغورانيون أقوى القبائل الكردية في جنوب غربي إيران. وإلى جانب الغورانيين تعيش أيضاً بطون خيلاني وقديرمير وبجالم ودالو وطالباني وذلك في مدن خانقين وقصر شيرين وحول كرمنشاه بغرب إيران.

اليزيديون

بينما يشبه الأكراد عامة الباثانيين في منطقة الحدود الشمالية الغربية لباكستان يشبه اليزيديون إلى حد كبير قبائل "لال كفير" التي تعيش على منحدرات جبال هندوكوش شمالي جترال في الحدود الشمالية الغربية من باكستان. ولحسن الحظ لا يتعدى التشابه بين الاثنين أكثر من ذلك.

ويبلغ عدد اليزيديين ٢٢٠٠٠ نسمة ويعرفون بعبدة الشيطان. وهم موزوعون أيضاً في جيوب صغيرة في مختلف أنحاء آسيا الوسطى. إلاّ أن عددهم كثيف في المنطقة الممتدة في شكل قوس مسافة ٨٠ ميلاً شمالي وشمال غربي الموصل ويطلق اليزيديون على أنفسهم بلغتهم اسم "دسازاي".

أصلهم

تتعدد النظريات عن أصل اليزيديين فيعتبرهم البعض إحدى القبائل الاسرائيلية المفقودة بينما يعتبرهم البعض الآخر من سلالة الآشوريين القدماء كما يرى البعض أنهم أبناء عمومة للزرادوشتيين الذين هاجروا منذ زمن سحيق في القدم عبر الجبال إلى غربي بحيرة أورميا حيث استقر بهم المقام.

تشتق كلمة "يزيدي" أو ايزادي "من كلمة يزدن" التي تعنى باللغة البهلوية القديمة سالمخلوق الأعلى" إذ أن الله تعالى يحتل في نظرهم سموا خيالياً معنوياً مجرداً، اما اهتمامهم الجدى فمنصب على المخلوق الذي نسميه نحن الملاك المغضوب عليه. إذا أردنا استعمال كلمات مهذبة لوصف الشيطان لكنهم يعتبرونه المخلوق الذي منحه سيد الكون السلطة الكاملة على العالم الأرضي. لذلك فالشيطان هو قوة يجب استرضاؤها واحترامها ولو كان من الصعب أن يحبه أي إنسان فهم يخافون ويرتعدون إذا ذكر شخص أمامهم كلمة سالشيطان" اللعينة لأن هذا هو الاسم المشين المخزي الذي يطلقه عليه المسلمون الذين يعتبرونه روح الشر المعارض لله تعالى بينما يعتبره اليزيديون جميعاً سيداً ذا قوة جبارة خارقة للطبيعة.

أما النظرية الأخرى الشائعة التي لا تستند على أي حقائق تاريخية فهي أن اليزيديين كانوا أجداد يزيد بن معاوية الشخص المسؤول عن شهادة الإمام حسين

حفيد النبي محمد صلى الله عليه وسلم. ويشبه اليزيديون الأكراد تماماً من الناحية العنصرية وحتى لغتهم قريبة جداً من اللغة الكرمانجية.

الديانة

من المستحسن التكلم عن عقيدتهم الدينية أولاً لأن نظرتهم السياسية مبنيّة على هذه العقيدة. ليست الديانة اليزيدية نظاماً متناسقا ولكنها مزيج غير مفهوم من الوثنية الجاهلية واليهودية والمسيحية والإسلام وأخيراً تعاليم الشيخ عدي المتصوف المسلم الذي قدم من حلب وتوفي سنة ١٢١ هجرية في بلدة شيخ عدي الواقعة على بعد ٣٥ شمال الموصل.

وتدور نصوص عقيدتهم حول استعطاف مصدر الشر الذي يقال له الملك طاؤوس الطائر المقدس. ولعل الاعتراف بمبدء الخير والشر الذي يخلده الملك طاؤوس مستمد من قدماء المعتقدين بالتثنية الإيرانيين. كذلك قد يكون اليزيديون استمدوا عبادة الشمس من إيران أيضاً لأن بحيرة أورميا الذي ولد عندها "النبي زورستر قريبة جداً من مكان عابدي الطائر المقدس. ومن جهة أخرى يرجح أن تكون عبادتهم للشمس هي أقدم عباداتهم لأنهم يتفانون في حبها عند مشرقها ومغربها ويقبلون المكان الذي يقع عليه أول شعاع لها".

يؤدي اليزيديون جميع صلواتهم ويقومون بشعائرهم الدينية الأخرى باللغة العربية مع أن لغتهم هي اللغة الدسنية القريبة جداً من الكرمانجية (لغة الأكراد) وهم يقدسون القرآن الكريم ويجلونه كغيرهم من المسلمين ويعتقد اليزيديون أن ماء زمزم بمكة ينبع من نفس المصدر الذي ينبع منه ماء بئر في قرية شيخ عدي (التي تبعد حوالي ٣٥ ميلاً شمال الموصل).

شعائرهم الدينية وعاداتهم الاجتماعية

كما ذكرت آنفاً تعتبر عقيدة اليزيديين مزيجاً من معتقدات كثيرة وأديان عدة فهم يختتنون مثل المسلمين ويعمدون مثل المسيحيين ويحرمون مثل اليهود أكل المحرم مثل الخنزير وغيره ويشمأزون كالمندائيين من اللون الأزرق وفي اعتقادهم أن كلاً من إبراهيم عليه السلام ويونس وعيسى عليهما السلام وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والإمام المهدي، وهو عندهم الشيخ عدي، إلى جانب الملك طاؤوس يكونون مزيجاً من

عقيدة غير مفهومة ليس لها مثيل في أي نحلة أخرى. ولا يجرؤ أي شخص أن يبصق على الأرض أمام أي يزيدي ولا أن يصدر عنه الصوت "ش" لأن كلمة شيطان تبدأ بهذا الحرف وإلا فقد الشخص حياته إذا كان في بلاد اليزيديين. ومن المأكولات التي يحرمها اليزيديون أكل الديك ذكر الدجاجة لأنه يشبه الطاووس في شكله وكذلك الفول والكوسة والقرع كما يحرمون أيضاً أكل لحم الخنزير.

وكما ذكرت من قبل يجل اليزيديون القرآن الكريم مثل أي مسلم آخر، إلا أن لديهم كتابين مقدسين آخرين يخصانهم وحدهم أحدهما اسمه كتاب الجلوه (كتاب الوحي) والآخر (الكتاب الأسود). كتاب الجلوه هو عبارة عن إعلان عن قوة الشيطان وجبروته موجه إلى أتباعه المخلصين. ويستهل الكتاب الكلمات التالية "لقد كنت ولا أزال وسأكون دائماً أبداً حاكماً على جميع المخلوقات آمراً وناهيا لشؤون وأعمال كل من يكون في طاعتي"، ويختم الكتاب بتوصية أتباعه بضرورة كتمان تعاليمه وعدم البوح بها. أما الكتاب الأسود فهو عبارتان: ذكر خلق العالم، وتاريخ موجز لجميع الأديان القديمة ومختلف الشعائر الدينية والحكم والمآثر الأخلاقية. والطريف أن كلمة "الشيطان" لم تذكر في الكتاب الأسود إطلاقا.

ألقاب رجال الدين اليزيديين

ينقسم رجال الدين عند اليزيديين إلى سبعة مراتب هي:

١– المير: وهو الذي يحرس ضريح الشيخ عدي وهو وحده الذي يمكنه الإفتاء في الأمور الدينية

٢– الشيوخ: وهم الزعماء والمعلمون الدينيون الذين في إمكانهم إصدار الفتاوى السياسية

٣– البير: وهو شخص مبجل موقر، يحتم عليه الكتاب أن يكرس وقته للصوم والوساطة

٤– الراهوال: الذي يقرع الطبول وينشد الأغاني أمام الملك طاؤوس

٥– الكوتشك: وهو الذي يكفن جثث الموتى ويفسر الأحلام

٦– الفقراء: وهم رهبان يلبسون عادة الملابس السوداء

٧– الملا: الذي يعلم الصغار ويحافظ على كتب اليزيديين المقدسة.

ويقسم اليزيديون إلى سبع طوائف. وهم متمسكون جدا بعادة الزواج الداخلي بل كل شخص لا يتزوج إلاّ من طائفته وحدها. وهذه الطوائف هي:

١- الشيخ عدي

٢- الشيخ الشمس

٣ -الملك طاؤوس

٤- الملك فرح الدين

٥- الشيخ شريف الدين.

ولا نعرف شيئاً عن الطائفتين السادسة والسابعة.

وهم يقدسون ضريح الشيخ عدي. وقد سمي هذا الضريح باسم شخصين يحملان نفس الاسم أحدهما ولي متصوف عاش في القرن الثاني عشر والآخر بستاني كردي عاش في القرن الثالث عشر.

يحترم اليزيديون اسم هامو شيرو الذي كان لفترة طويلة زعيماً زمنيا لليزيديين بدون منازع في جبل سنجار. وكان مستشاراً للزعيم الأكبر وأصبح زعيماً للفقراء ونشر فيهم الميول الانفصالية وروح المشاغبة ولكن لم يقم هؤلاء بأي اضطرابات ضد الحكومة بفضل حسن إدراك الزعيم وتعقله. ومن جهة أخرى توطن الحكومة العراقية اليزيديين وتقدم لهم كل المساعدات الممكنة حتى أصبحوا مواطنين عراقيين يشاركون في إدارة شؤون البلاد ويحافظون على القانون بعد أن كانوا فيما سبق شرسين خارجين على القانون.

ملحق

لقد مضى ما يزيد عن ستة عشر عاماً على كتابة هذا الكتاب وكم من أحداث جسام حدثت منذ ذلك التاريخ إلاّ أن النمط العام لتاريخ الأكراد لم يتغير. إنّ الأكراد في تركيا لم يحتفظوا ببقائهم كأكراد بل يعرفون بالأتراك الجبليين.

أما في العراق وفي إيران نظراً للحوادث التأريخية المميزة فإن الأكراد لم يندمجوا في هاتين الدولتين المتعددتي الأجناس واللغات. إن الأكراد في إيران وبعد سقوط الدكتور مصدق لم تكن لهم تلك الأهمية التي كانت وخصوصاً في الأخبار الإيرانية.

أما في العراق وخاصة بعد ثورة تموز عام ١٩٥٨ فقد حاولت الحكومات الثورية المتعاقبة بإخلاص وأمانة حل المشكلة الكردية إلا أنها لم توفق إلى حل مقبول لدى الأكراد بسبب الضغوط السياسية الخارجية لتلك المنطقة.

والآن ولأول مرة في ١١ آذار ١٩٧٠ عقدت إتفاقية لوقف القتال بين الحكومة العراقية والثوار الأكراد.

إن الأزمة الكردية في شمال العراق قد شغلت القسم الأكبر من القطعات وسلاح الجو العراقي وجعلته بعيداً عن العدو الحقيقي – إسرائيل. إن اتفاقية ١١ آذار ١٩٧٠ وما تنطوي عليه من بعد نظر الحكومة العراقية تستحق الشكر والثناء للحكومة والشعب العراقي حيث أن قواتهم ستحول جهدها لمقاتلة عدو المنطقة الحقيقي. إن إسرائيل هي العدو الحقيقي للعرب والأكراد على السواء.

ولئن كان مغزى كتابي هذا هو أن أثبت من خلال التحري لدراسة التاريخ الكردي أن وحدة المسلمين الأساسية تتعدى الحدود القومية الزائفة والتي أساسها اللغة والجنس والعوامل الجغرافية والسياسية. إن الاتفاقية الحاضرة بين الحكومة العراقية والثوار الأكراد قد برهنت ولاشك تلك الحقيقة وكانت نقطة تحول في تاريخ الشعب الكردي فكل ذلك يثبت أنه نظراً للخطر المحدق بالإسلام وبالمقدسات الإسلامية (القدس والأقصى) انه يستوجب على هذين الشعبين المسلمين إزالة الخلافات من بينهما برغم الضغوط السياسية للدول الكبرى.

وبعد كل هذا فإن الإسلام كائن كما كان وسيبقى القوة الكبيرة الموحدة لجميع

الشعوب المتباينة الأجناس واللغات والعقائد.

إن الإسلام ذو معنى سام حتى عند المسيحيين الآسيويين لأنه يقبل ويعتنق البناء الروحي والاجتماعي الذي انتشر في آسيا بفضل تعاليم السيد المسيح الذي عاش في تلك المنطقة، المعروفة الآن بمنطقة الشرق الأوسط وألقى مواعظه على القوم الذين لايزال خلفهم يعيشون في تلك المنطقة.

ومن المؤسف حقاً أن ترى الآن أن القوم الذين أنكروا تعاليم المسيح وعذبوه يلقون العون والتأييد من أتباع السيد المسيح عليه السلام

الفهرس